عبد المجيد فرغلي

أميرة العشق الإلهي

رابعة العدوية

مسرحية شعرية من «الجانب الصوفي»

عند عبد المجيد فرغلي

إعداد وتقديم

عماد الدين عبد المجيد فرغلي

الطبعة الثانية

القاهرة ٢٠١٨م

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : أميرة العشق الإلهي رابعة العدوية
المؤلف : عماد الدين عبد الجيد
تصنيف الكتاب : مسرحية
المقاس ١٧ × ٢٤
رقم الإيداع : ١٣٤٢٨ / ٢٠١٨
الترقيم الدولى : 978 - 977 - 776 - 675 - 3

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة
التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢
Email : yastoron@gmail.com
موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

تقديـــم

عزيزي القارئ والباحث والدارس والمحب لشعر الشيخ **عبد المجيد فرغلي** استمرارًا في نشر الإبداع الشعري لرحالة الشعر العربي **عبد المجيد فرغلي**، وطرحه للبحث والنقد، وبعد صدور العديد من إبداعه في إصدارات سابقة لنا بعد وفاته هي:

١- المجلد الأول (**وستبقى يا وطني حيًا**)، المودع دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ٨٣٤٧ لسنة ٢٠١١م.

٢- المجلد الثاني (**الصرح الخالد**)، المودع دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ١٩٤٧٢ لسنة ٢٠١١م.

٣- المجلد الثالث (**دموع تائب**) إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب، والمودع دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ٣٣٣٥٦ لسنة ٢٠١٢م.

٤- المجلد الرابع (**أصداء وأضواء**)، المودع دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ١٣٣٦٣ لسنة ٢٠١٤م.

٥- كتاب (**عبد المجيد فرغلي، رحالة الشعر العربي - دراسات وقصائد**)، المودع دار الكتب والوثائق القومية برقم ١١٨٧٧ لسنة ٢٠١٢م.

٦- كتاب (**عبد المجيد فرغلي.. سيرة ومسيرة**) في طبعته الأولى المودعة دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ١٩١٧٩ لسنة ٢٠١٣م، ثم (عبدالمجيد

فرغلي في سطور)، المودع دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ٢٣٥٩٥ لسنة ٢٠١٥م، والذي كان في طبعات سابقة ملحقًا ضمن مجلدات (وستبقى يا وطني حيًا، والصرح الخالد، وأصداء وأضواء)، ثم ضمه مع كتاب (عبد المجيد فرغلي.. سيرة ومسيرة) السالف ذكره ليخرج في نسخة رابعة مزيدة ومنقحة تحت عنوان (عبد المجيد فرغلي.. سيرة ومسيرة)، أودع دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ٢٣٥٩٦ لسنة ٢٠١٧م، وجاري إعداد طبعة خامسة منه مزيدة لتكون ضمن مطبوعات الدورة التاسعة للمؤتمر الأدبي الدولي لرحالة الشعر العربي عبد المجيد فرغلي، في يناير ٢٠١٩م.

٧- كتاب (**عبد المجيد فرغلي.. معجزة العبور**)، المودع دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ١٩١٨٠ لسنة ٢٠١٣م، والمتضمن السيرة الذاتية للشاعر بقلمه، والتي أصبحت جزءًا من كتاب (سيرة ومسيرة) في طبعته الرابعة وما سيليها من طبعات بمشيئة الله تعالى، بالإضافة إلى تضمنه لنماذج من أشعاره.

٨- مسرحية (**شروق الأندلس**) في طبعتها الثانية إصدار المجلس الأعلى للثقافة، المودعة دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ٢٦٢٢٥ لسنة ٢٠١٥م.

٩- ديوان (**تائب على الباب**)، الصادر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، والمودع دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ١٦٨٥٤ لسنة ٢٠١٦م.

١٠- ملحمة (**السيرة الهلالية**) إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب - في

ثلاث مجلدات – تتضمن عشر أجزاء:

المجلد الأول: المودع دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ٢٢٨٩٧ لسنة ٢٠١٧م.

المجلد الثاني: المودع دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ٧٦٧٦ لسنة ٢٠١٦م.

المجلد الثالث: المودع دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ١٠٠٣١ لسنة ٢٠١٦م، والصادر في ديسمبر ٢٠١٧م.

١١- ملحمة (**نـداء مـن القدس**) المودعة دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ٢٣٥٩٤ لسنة ٢٠١٧م في طبعتها الثانية.

١٢- مسرحية (**بيت تحت الإعدام**) المودعة دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ٢٣٥٩٦ لسنة ٢٠١٧م.

١٣- مجلد (**دموع وأنداء**) المودع دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ٢٦٠١٦ لسنة ٢٠١٧م، والذي يتضمن في جزء منه جانبًا من شعر التفعيلة عند الشاعر وشعر المعارضات.

١٤- كتاب (**رسالة الشعر في حياة الشاعر عبد المجيد فرغلي**) الذي يتضمن دراسـات المؤتمر الأدبـي الدولي لرحالة الشعر العربي عبد المجيد فرغلي في دورته الثامنة أيام ٥ و٦ و٧ من ديسمبر ٢٠١٧م، والمودع دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ٢٣٦٩٩ لسنة ٢٠١٧م.

١٥- مجلد (**رحلة في عيون الشوق**) المودع دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ٢٦٠١٧ لسنة ٢٠١٨م، الذي يتضمن جانبًا كبيرًا من شعره الوجداني.

وفي هذا الإصدار يسعدنا استكمال مسيرة المسرح الشعري عند عبد المجيد فرغلي الذي بدأ بمسرحة المناهج التعليمية في مجلد (**أصداء وأضواء**) ثم مسرحية (**شروق الأندلس**) في طبعتها الثانية من المجلس الأعلى للثقافة، ثم صدور مسرحية (**بيت تحت الإعدام**)، نطرح مسرحية (**رابعة العدوية.. أميرة العشق الإلهي**)، في طبعة ثانية بعد طبعتها الأولى في حياة الشاعر في نسخ محدودة أودعت دار الكتب والوثائق القومية المصرية تحت رقم ١٠٩٤٤ لسنة ٢٠٠٦م، والتي تمثل المسرح الصوفي في شعر عبد المجيد فرغلي، وجزء من الجانب الصوفي في شعره.

راجين من الله (عَزَّوَجَلَّ) أن تكون في ميزان حسناته أو علمًا يُنتفع به

والله ولي التوفيق

عماد الدين عبد المجيد فرغلي

تمهيـد
المسرح الشعري.. عند عبد المجيد فرغلي

برز المسرح الشعري عند عبد المجيد فرغلي في الخمسينيات كوسيلة إيضاح تعليمية لطلبة المرحلة الابتدائية من تلامذته، حيث كان مدرسًا للمواد الاجتماعية (التاريخ والجغرافيا) واللغة العربية؛ ليتم تمثيلها من تلامذته على المسرح المدرسي بمدرسة الغنايم شرق الابتدائية بأسيوط، وقد تضمن ديوانه الثاني (**العملاق الثائر**) الصادر ١٩٥٩م مسرحياته الأولى وهي:

١- **بين النفس والضمير**.

٢- **العروبة وعودة فلسطين**، والتي أعاد صياغتها عام ٢٠٠٤م بعد تحرر الدول العربية من ربقة الاستعمار التقليدي ومرور الدول العربية بالعديد من الأزمات التي استهدفت وحدتها ومنها غزو الكويت، وحرب العراق؛ فهي ضمن الجزء الرابع من أعماله الكاملة (أصداء وأضواء) المودع دار الكتب والوثائق القومية برقم ١٣٦٣٣ لسنة ٢٠١٤م.

٣- **حياة مصر الفرعونية**، والتي أعاد صياغتها أيضًا عام ٢٠٠٠م، وهي ضمن الجزء الرابع من أعماله (أصداء وأضواء).

ثم جاءت مسرحيته (**طومان باي**) لتؤرخ وترصد نهاية الدولة المملوكية، التي كانت ضمن المنهج التعليمي لطلاب المرحلة الابتدائية.

وبعد فترة من التوقف منذ تأليفه مسرحية (طومان باي) في أوائل السبعينيات، استكمل مسيرته في المسرح الشعري عام ١٩٨٥م بمسرحيته (**بيت تحت الإعدام**) في النسخة المطبوعة بالكمبيوتر في حياته، والتي قام بتشكيلها بخط يده

وتحمل اسمًا آخر في النسخة الخطية (**الضحية**)، وقد انتهى من تأليفها في ١٠/ ٣/ ١٩٨٥م، ويعلق عليها بقوله (مسرحية شعرية من واقع الحياة).

وأضيف أن المسرحية من وحي قصة حقيقية للشاعر، وهي تنفيذ حكم بإزالة منزله في قرية النخيلة محافظة أسيوط، الذي جمع فيه نتاج غربته في ليبيا للعمل بالتدريس حتى عام ١٩٧٧م، فكانت المسرحية تعبيرًا عن الظلم الذي تعرَّض له والواقع الأليم الذي عاشه، وأدى إلى انتقاله من مسقط رأسه (النخيلة) إلى محل عمله (صدفا) للإقامة وحتى وفاته (٢٠٠٩م) موصيًا بدفنه في مسقط رأسه (النخيلة).

ثم في عام ١٩٩٤م، أي بعد ثمان سنوات كانت مسرحيته (**الفاو، وغزو الكويت**)، والتي انتهى من تأليفها وطباعتها على الكمبيوتر في ١٦/ ٦/ ١٩٩٤م يوثق بها ويؤرخ لغزو الكويت، وكيفية التدبير له من القوى الاستعمارية ونتائجه التي تعاني منه الأمة العربية والإسلامية حتى الآن، وقد كانت تلك الأحداث أيضًا لها التأثير في إبداعه فكان ديوانه (**درة في اللهيب**) الذي يؤرخ ويتابع فيه الأحداث من الغزو العراقي للكويت وحتى التحرير، وما مرَّ من أحداث.

وفي أبريل ١٩٩٥م كانت مسرحيته (**بيت تحت الإعدام**) التي من وحي مقال منشور في جريدة الأهرام المصرية بتاريخ ٨/ ٤/ ١٩٩٥م بعنوان (**الفضيلة امرأة**) وفق ما أشار له الشاعر في تعليقه على المسرحية، المودعة دار الكتب والوثائق القومية المصرية في طبعتها الأولى مع مسرحية (**رابعة العدوية**) في كتاب واحد برقم ١٠٩٤٤/ ٢٠٠٦، وهي أيضًا ضمن المجلد الرابع من أعماله الكاملة (**أصداء وأضواء**) المودع دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ١٣٦٣٣/٢٠١٤م.

وفي عام ١٩٩٦م كانت مسرحيته (**رابعة العدوية، أميرة العشق الإلهي**) التي انتهى من تأليفها وكتابتها بالكمبيوتر وشكلها بخط يده في طبعتها الأولى في ١٤/ ١/ ١٩٩٦م وعلَّق عليها في عيد ميلاده الرابع والستين، والمودعة دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ٢٠٠٦/١٠٩٤٤م.

وفي أبريل ٢٠٠١م كانت مسرحيته (**شروق الأندلس**) وهي قضية مرتبطة بإحدى قضايا العالم العربي والإسلامي، ومنها العبرة والعظة في كيفية الحفاظ على الأوطان، في ظل الهجمة الممنهجة للصهيونية العالمية المستهدفة تقسيم المُقَسَّمْ وتفتيت المُفتَّت، في الوطن العربي، مستشرفًا ما يحدث وما يحاك حاليًا لكل البلدان العربية، وقد أضاف لها عددًا من المعارضات الشعرية لشعراء المغرب والأندلس، وقد أودعت في طبعتها الأولى دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ٢٠٠٧/٥٦٥٥ في حياته، وصدرت بعد وفاته من المجلس الأعلى للثقافة، وأودعت دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ٢٠١٥/٢٦٢٢٥.

وفي عام ١٩٩٦م كانت مسرحيته (**رابعة العدوية، أميرة العشق الإلهي**) التي انتهى من تأليفها وكتابتها كمبيوتر وشكلها بخط يده في طبعتها الأولى في ١٤/ ١/ ١٩٩٦م وعلَّق عليها في عيد ميلاده الرابع والستين، والمودعة دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ٢٠٠٦/١٠٩٤٤م.

وفي أبريل ٢٠٠١م كانت مسرحيته (**شروق الأندلس**) وهي قضية مرتبطة بإحدى قضايا العالم العربي والإسلامي، ومنها العبرة والعظة في كيفية الحفاظ على الأوطان، في ظل الهجمة الممنهجة للصهيونية العالمية المستهدفة تقسيم المُقَسَّمْ وتفتيت المُفتَّت، في الوطن العربي، مستشرفًا ما يحدث وما يحاك حاليًا لكل البلدان العربية، وقد أضاف لها عددًا من المعارضات الشعرية لشعراء المغرب والأندلس، وقد أودعت في طبعتها الأولى دار الكتب

والوثائق القومية المصرية برقم ٢٠٠٧/٥٦٥٥ في حياته، وصدرت بعد وفاته من المجلس الأعلى للثقافة، وأودعت دار الكتب والوثائق القومية المصرية برقم ٢٠١٥/٢٦٢٢٥.

وبهذا نكون قد وضعنا أمام الباحث والدارس حصرًا شاملاً بالمسرح الشعري عند عبد المجيد فرغلي، يضاف إليه ملحمة (السيرة الهلالية) التي يصنفها البعض من الشعر المسرحي والبعض الآخر يصنفها من الشعر الملحمي، وهذا أمر متروك لكل متخصص وباحث.

بيان بالشعر المسرحي

ترك الشيخ عبدالمجيد فرغلي، عشر مسرحيات شعرية هي:

أولاً: مسرحية شروق الأندلس.

ثانيًا: مسرحية العروبة وعودة فلسطين.

ثالثًا: مسرحية محمد الدرة رمز الفدا.

رابعًا: مسرحية رابعة العدوية، أميرة العشق الإلهي.

خامسًا: الفاو وغزو الكويت.

سادسًا: صور من حياة مصر الفرعونية.

سابعًا: طومان باي.

ثامنًا: آدم وحواء في الجنة.

تاسعًا: مسرحية بيت تحت الإعدام.

عاشرًا: مسرحية بين النفس والضمير.

رابعة العدوية في ذاكرة الزمان

زمن المسرحية:

في العهد الأموي - العباسي في القرن الثاني والثالث الهجري.

أشخاصه:

(١) رابعة. (٢) أم رابعة. (٣) والد رابعة.

(٤) عبدة خادمة رابعة.

(٥) برهان - تهاني - يعطفان على رابعة ثم يبيعانها.

(٦) ثوبان العابد الزاهد في عهد رابعة.

(٧) السيد عصام: محب لرابعة وتاجر من تجار البصرة التقى بها في الأبله واشتراها بماله في سوق الرقيق بالبصرة.

(٨) السيد خليل: مناوئ للسيد عصام في حب رابعة.

(٩) قاضي البصرة: في الحكم على ثوبان ورابعة في جريمة لم يرتكباها.

(١٠) راوي الزمان: وهو الرابطة بين رابعة والمجتمع الإنساني.

(١١) هارون الرشيد. (١٢) رسول هارون الرشيد.

(١٣) سائل: يتابع رابعة.

(١٤) ملائكة وحور: تهبط من السماء ترد عن رابعة وتحمل إليها بشرى القبول - وعند وفاة رابعة تحملها إلى مثواها الأخير.

(١٥) عُبَّاد كرابعة في التصوف.

موضوع المسرحية:

ديني - اجتماعي - أخلاقي.

مصادر المسرحية:

(١) التصوف الإسلامي للأستاذ/ طه عبد الباقي سرور.

(٢) كتاب الأدب الصوفي في مصر.

(٣) التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة. للدكتور/ إبراهيم هلال.

(٤) كتاب إحياء العلوم للغزالي.

(٥) كتاب الصوفية «الوجه الآخر» للدكتور/ محمد جميل غازي.

المؤلف

عبد المجيد فرغلي محمد رفاعي

١٤ / ١ / ١٩٩٦م

الفصل الأول

طفولــة رابعـة

رابعة العدوية

من الشعر التمثيلي

المشهد الأول

يوم ميلاد رابعة

أشخاصه:

راوي الزمان - أم رابعة - والد رابعة - برهان - تهاني

راوي الزمان: (رياح عاصفة)

طُوبَىٰ بَنِي عَدِيّ ... مِنَ الثَّرىٰ البصريِّ
في صاخِبٍ عَتِيٍّ ... مِنْ مُرْعِدِ الأتِيِّ
مولُودَةٌ ببيتٍ ... ومَا بِهِ مِنْ شَيِّ
ومِنْ أبٍ فقيرٍ ... لَدَىٰ بَنِي عَدِيِّ
لا قطرةٌ مِنْ سَمْنٍ ... لِسُرّةِ الصبيِّ

أم رابعة:

اذهَبْ إلىٰ الجِيرَانِ ... واقبَسْ مِنَ النِّيرَانِ
فَتيلةً لِلضوءِ ... تُنِيرُ لِلمكانِ
وصبيةٍ ثلاثٍ ... رابعةُ لِلعَانِ[1]

(١) العاني: الفقير.

يشكو لضيق حالٍ ... وما به يُعاني

والد رابعة: (**تأثر**)

وليدةٌ أراها ... رائعةَ الحِسَانِ
لأُمّها أنينٌ ... يَفيضُ بالحَنَانِ
يا ربِّ لا تكلها ... لباخِلٍ الجِيرانِ

أم رابعة: (**توسل**)

أُخرُجْ وَسَلْ قليلاً ... مِنْ سَمْنِ دُهْنِ ضَانِ
وقطرةٍ مِنْ زَيْتٍ ... للضوءِ يا خِلّانِي

والد رابعة:

ما عُوّدَتْ سُؤَالاً ... مِنْ سَابِقِ الأزمانِ
ولا رجتْ حِبَاءً ... إلا مِنَ الدّيَّانِ
اليومَ تبتغينَ ... هذَا مِنَ الإنسَانِ؟
الرَّازِق المُقيتُ ... وصاحبُ الإحسَانِ

أم رابعة:

البيتُ في خَواءٍ ... يَئِنَّ مِنْ إثْخَانِ
لا سمنَ لا طَعَامًا ... نَرَاهُ فِي مَكَانِ
فاذْهَب وهاتِ شيئًا ... يَبُلُّ للظمآنِ

والد رابعة:

خـــرجـــتُ أغـــلـــقُـــوا مَـــا أُحـــيـــطَ مِـــنْ جِـــفَـــانِ
وَعـــدتُ خَـــالـــيَ الـــوِفَـــاضِ (م) مِـــنْ نَـــدَىٰ حَـــنَـــانِ

راوي الزمان:

أقْـــعَـــىٰ بـــرُكـــبـــتـــيـــهِ ووجـــهُـــهُ يُـــعـــانِـــي
ومُـــطـــرقـــاً حـــزيـــنـــاً يَـــئِـــنُّ مِـــنْ أحـــزَانِ
وفِـــي الـــمـــنَـــامِ قـــدْ رأىٰ سَـــنَـــا الـــنـــبـــي الـــعـــدنـــانِ
رأىٰ الـــنـــبـــي قـــائـــلاً لـــتـــذهـــبُـــنْ لـــفُـــلانِ
وقُـــلْ لـــه مـــا زُرتـــنَـــا فـــي جُـــمـــعـــةٍ تـــراني
قـــد نِـــمْـــتَ عـــن صلاتـنـا يـــا قـــاضـــيَ الـــزمـــانِ
عـــلـــيـــكَ مـــن كـــفَّـــارةٍ ألـــفـــانِ مـــن عِـــقـــيَـــانِ
وأربـــعِ الـــمـــئـــاتِ مِـــنْ ديـــنـــارِهَـــا لِـــفُـــلانِ
وصـــدقَ الـــرؤيـــا بـــهـــا سَـــعْـــيٌ بِـــلا تَـــوَانِ
أعـــطـــاهُ مَـــا أرادَهُ وعـــادَ غَـــيـــرَ - وانِ

والد رابعة: (كرامات طفلة)

يـــا أُمَّ بـــنـــتـــنـــا خُـــذِي ســـمـــنـــاً وزيـــتـــاً دَانِـــي

(م) حرف الميم بين الشطرين معناها أن البيت مدور أو موصول أو اللفظ مشترك بين الشطرين، وفق ما أشار إليه الشاعر عن كتابته لحرف الميم في مخطوطاته.

وأربعَ المئاتِ مِنْ ... ديناراً حبانِي
ميمُونةٌ رابعةٌ ... مرفوعَةُ الكِيَانِ
سِرُّ النبيِّ جاءَها ... في خَلوةِ احتضانِ
وضمَّها لرُكنِهِ ... صُوفيةَ الزمانِ
سبعونَ ألفٍ وافدٍ ... شفاعَةَ امتنَانِ
يرجونها وسيلةً ... شفيعةً بِشَانِ
مكانُهَا من ربها ... قريبةُ التدانِي
ففصِّلي ثيابها ... بفضلِ مُستعانِ
كُلي وثمَّتَ أشربي ... قرتْ لكِ العينانِ
رزقٌ من السما أَتَىٰ ... لربنا شُكرانِ
شُكرٌ علىٰ تفضلٍ ... بأنعُمٍ دوانِي
وشكُرُهُ علىٰ الذي ... ببنتيَ احتبانِي

أم رابعة: (رضا وحمد)

اللهُ قد حبانا ... بالفضلِ ما حبانَا
رابعةٌ كريمةٌ ... بها الرضَا غشَّانَا

* * *

المشهد الثاني

فتونُ رابعةٍ

أشخاصه:

الراوي - التاجر - رابعة - برهان - تهاني

راوي الزمان: (اعتداء على تاجر رابعة تخلصه)

ولـــمْ تَـــزَلْ رابـــعَـــةٌ تـمـضـي بـهـا الـسَّـنُـونُ
مِـــنْ طـفـلـةٍ ولـيـدةٍ بـهـا ازدَهَـــىٰ الـفُـتُـونُ
سِـحـرُ الـجـمـالِ قـدْ سَـرَىٰ تـهـوىٰ قـوامـهـا الـغُـصُـونُ
جـمـالُـهَـا مُـحـيِّـرٌ وحُـسـنُـهَـا مَـصُـونُ
في قـــارِبٍ لـوالـدٍ يـسـعَـىٰ بـهـا الـحَـنـيـنُ
ومـــرَّ حـيـنٌ بـعـدَهُ تـقـلـبـتْ ظُـنُـونُ
قَـدْ مَـاتَ والـداهـا أُمٌّ: أبٌ حَـنُـونُ
وجـاءَ قـحـطٌ جـارِفٌ ألـقـتْ بـهِ الـقُـرُونُ
«بـبـصـرةٍ» وغـيـرهـا سَـرىٰ لـهـا الـمـنُـونُ
كـمْ غـالَ مـن ذويـهـا وخـيَّـم الـسُّـكُـونُ
أختٌ وأُختٌ دونـهـا أُخـتٌ طـوىٰ الـرُّكُـونُ

كُلٌّ نَحَتْ طريقًا جَرَتْ بها سَفِينُ
رابعةٌ تفتحتْ ورامَهَا القرينُ
وبينما تُقاسي وقلبُهَا حَزينُ
تمشي لدىٰ طريقٍ نِجَادُهُ حُزونُ
إذ اعتدت عصابةٌ يقودها الجنونُ
ومرَّ في طريقه مُتَّجِرُ أمينُ
إذ بالعصابةِ ابتغتْ شرًّا به يكونُ
ألقتهُ في شباكها وأعوزَ المعينُ
رابعةٌ إليه قدْ جرت له تُعِينُ
وخلصتهُ كفَّهَا وضلَّ من يخونُ
في قريةٍ تربصت وقلَّ من يصُونُ
قُطَّاعُ طُرْقِ أبلستُ بحيهم ظنونُ
من فكَّ هذا إنَّهُ شِباكُهُ تَرِينُ
من نخلةٍ ونخلةٍ بينهما رهينُ
لابد من يدٍ لهُ أرسلها معينُ
رنت إليه أو رنا إذ التقتْ عُيونُ
بينهما تسللت مشاعرٌ تلينُ
حُبٌّ ببدءِ نظرةٍ حارتْ لها الجُفونُ

التاجـر:

مَـــنْ أنـــتِ يـــا فـتـاتـي عُـمـري بـهـا الـمَـصُـونُ؟
قـد أنـقـذتْ حـيـاتِـي إني لـهـا الـمـديـنُ

رابعة:

مـسـكـيـنـةٌ حـزيـنـةٌ لـلـعـهـد لا تـمـيـنُ
شـمـالـهـا لـم تَـدْرِ مـا قـد فـعـلـت يـمـيـنُ

التاجر:

مـاذا تُـراهـا قـريـةٌ مـضـيـفـهـا غـبـيـنُ؟

رابعة:

«أبُـلَّـةٌ»[1] وحِـلَّـةٌ مـوءودهـا دفـيـنُ
مـا لـم تـكـن عـنـايـةٌ مـوصـولـهـا قـمـيـنُ
وأنـتَ أيُّ بـلـدةٍ لـربـهـا شـئـونُ؟

التاجر:

مـن بـصـرةٍ وإنـهـا مـديـنـهـا أمـيـنُ
لـهُ بـهـا تـجـارةٌ نـاءتِ بـهـا الـديُـونُ
وأنـتِ قـد أنـقـذتـهـا يـا مـنْ لـهـا أديـنُ

(١) الأبُلة: بضم الهمزة والباء واللام المشددة، مدينة بالعراق.

إن شـئـتِ زرتِ بـلـدتـي تـــريـــنَ مـــا يـــكـــونُ

راوي الزمان:

وذكـــريـــاتٍ دونـــهـــا تـــقـــشَّـــعـــتْ دُجُـــونُ
تـــذكَّـــرتْ أبـــاهـــا وأمـــهـــا تـــحـــيـــنُ
وأخـــتـــهـــا وأخـــتـــهـــا وأخـــتـــهـــا شُـــجُـــونُ
دارتْ بـــأم رأســـهـــا مـــاذا بـــهـــا يـــشـــيـــنُ؟

التاجر: (**إعجاب بجمال رابعة**)

هـــذا الـــجـــمـــالُ رائـــعٌ أيـــعـــتـــريـــهِ هـــونُ؟
إن شـــئـــتِ قـــابـــلـــيـــنـــي في بـــصـــرةٍ أكـــونُ
قـــد نـــلـــتـــقـــي لأمـــرٍ تُـــكـــنَّـــهُ الـــقُـــرُونُ

رابعة:

إلـــىٰ الـــلـــقـــاءِ إنـــنـــي يـــمـــلأني الـــيـــقـــيـــنُ

التاجر:

ســـنـــلـــتـــقـــي ســـنـــلـــتـــقـــي ولـــلـــقـــا - ضـــمـــيـــنُ

رابعة:

مـــســـيـــرةٌ مـــكـــتـــوبـــةٌ ورقَّـــهُـــا الـــجـــبـــيـــنُ
تـــبـــدو عـــلـــيـــه دونـــهـــا مـــعـــالـــمٌ تـــبـــيـــنُ

التاجر:

رابـــــعـــــةٌ وداعـــــًا أيـــتـــهـــا الـــمـــصـــونُ

رابعة:

بـــالـــبـــصـــرة الأمـــــاني بـــهـــا أرىٰ كـــيـــاني
أســـقَـــىٰ لـــهـــا بـــرحـــلـــةٍ يـــهـــفـــو لـــهـــا جَـــنَـــانِـــي

راوي الزمان: (رجل طيب فقير)

وبـــيـــنـــمـــا بـــفـــكـــرهـــا ســـــارحـــــةٌ تُـــدانِـــي
إذا بـــهـــا ســـبـــيَّـــةٌ مـــن ظـــالـــمٍ جـــبـــانِ
ألـــقَـــىٰ شـــبـــاك خَـــتْـــلِـــهِ وأمـــســـكـــت بَـــــدَانِ
رابـــعـــةٌ قـــد أفـــلـــتـــتْ تـــجـــري بـــلا تَـــــوانِ
وفـــــوق كـــتـــفـــهـــا عـــصـــًا بِـــصُـــــرَّةٍ تُـــعـــانِـــي
كـــبـــت عـــلـــىٰ تُـــرابـــهـــا وضـــــم ذُو حَـــنَـــــانِ
وقـــــال بـــنـــتـــي أقـــبـــلِـــي عـــلـــيـــكِ مـــن أمـــــانِ
مـــضـــىٰ بـــهـــا لـــزوجـــهِ لآمِـــــــنِ الـــمـــكـــــانِ

برهان:

يـــا زوجـــتـــي فـــتـــاةٌ مـــن أجـــمـــلِ الـــحِـــسَـــانِ
تـــخـــذتُـــهَـــا لـــيَ ابـــنـــةً بِـــــرِّي بـــهـــا.. تـــهـــانِـــي

تهاني:

بِنْتًا لنا نراها لا بأسَ أن ترانِي

برهان:

وأكرمِي مثواهَا بخالصِ الحنانِ

تهاني:

مرحَىٰ أيا فتاتِي في العينِ في جَنَانِي
ما لي فتاة أنت لي فتاةٌ بيتي المُصَانِ
طيبي مُقامًا بيننا في الصوِ في الأمانِ

راوي الزمان: (صناعة تغني عن السؤال)

رابعةٌ تعلَّمِي صناعةَ الأوانِي
من طين أرضٍ أصلُهَا من طينةِ الإنسانِ
فلتصنعي قدُوراً من آنةٍ لآنِ
فقوتُنَا عليها من سالفِ الأوانِ

رابعة:

لا بأس يا أماهُ لي من حرفةِ البنانِ
أصلٌ عليهِ نشأتِي مُذَ والدي ربَّانِي

تهاني: (**تعلمها كيف تصنع**)

لـــي انـــظـــري بـصُـنـعـهـا وقـــلـــدي افـتـنـانِـي

راوي الزمان: (**تعلق برهان برابعة ـ وتبرمت بها تهاني غيرة**)

تُـصـغِـي لـهـا وتـرنُـو لـصـنـعـةِ الأنـانِـي
تـمـضـي شـهـورًا عـنـدهـا وزوجـهـا بُـرهَـانِ
تـعـلَّـقَـتْ كـلاهُـمـا حُـبّـًا كـريـم شَـانِ
غَـلا اهـتـمـامُـه بـهـا كـوالـدٍ مُـدانِـي
أحـبـهـا كـبـنـتـهِ أضـفَـىٰ لـهـا الـتـدانِـي
ذاتَ يـومٍ أقـبـلـتْ مـن فـورهـا تـهـانِـي
هـذي الـفـتـاة دُونِـي ودُونـهـا مـكـانِـي
جـمـيـلـةٌ لـعـوبٌ خـلُـوبـةُ الـلِّـسَـانِ
أذهـبْ وبـعـهـا واسـتـقِـمْ مـعـي ودعْـكَ مـن حِـرَانِ
إمَّـا أنَـا أو هـذهِ فِي هـذهِ الـجُـدرَانِ
بُـرهـانُ بـعـهـا واسـتـقِـمْ (كـمـا) أُمـرتَ مـن تـهـانِـي

برهان: (**حبّ أبوي**)

يـا زوجـتـي أبـنـتـنـا تُـبـاعُ كـالـقِـيَـانِ؟
إني عـلـقـتُ حُـبـهـا بـنـتـا ثَـوَتْ جَـنَـانِـي

تهاني:

من أجلِ ذاكَ بعها بأبخسِ الأثمَانِ
ولا تَعُد لبيتي بها بُعيدَ آنِ

رابعة: (**توسلٌ وخشية من الرِق**)

أمَّاهُ بل ذريني لخدمةٍ أرانِي
أحببتُ بيتَ صالحٍ حنانُهُ احتوانِي
أصلِي كريمٌ فأعلمي ولستُ من عُبدانِ
أهلِي بنو عَديٍّ أهلِ التُّقَىٰ الربانِي
لا تُخسرِي حق البنـ ـوةِ ارفعِي ميزانِي
إن تكسري بخاطرِي سأغتدي وشانِي

تهاني:

كلا وألفُ كلا في أولٍ وثانِي

برهان: (**شهادة بِطُهر**)

يا زوجتي دعينِي كُل المتاعِ فانِي
المالُ ليسَ يبقَىٰ علىٰ مدىٰ الزمانِ
وبنتنا تقيَّةٌ نقيَّةُ الجُثمَانِ
لا رجسَ فوقَ ثوبٍ ولا صدَىٰ بُهتَانِ
أما لديكِ رحمةٌ تَرَيَثِي تهانِي

تهاني: (**قسوة**)

كـــــلَّا وألـــــــفُ كـــلا بِـــعْـــهَـــا مـــعَ الـــغَـــوانِـــي

برهان:

للهِ أمـــــري يـــا ابـــنـــتِـــي مـــا الـــســـمـــعُ كـــالـــعِـــيَـــانِ

سُـــوقُ الـــجـــواري جـــارُنَـــا وأنـــــــتِ لـــلـــزَّمَـــانِ

رابعة: (**استهتار**)

هـــيَّـــا أبـــي لـــمـــا تَـــرَىٰ سُـــوقُ الـــهَـــوَىٰ دعَـــانِـــي

رُمْـــــتُ الـــنَّـــقَـــاءِ إنـــمـــا ضـــلَّـــتْ بـــيَ الـــمـــعـــانِـــي

بـــعـــنِـــي لـــمـــن تـــــراهُ أهـــــلاً لـــــذاتِ شَـــانِـــي

فـــحـــرفـــتِـــي غِـــنَـــاءٌ والـــنَّـــايُ كـــالأغـــانِـــي

مـــن حـــانـــةٍ لـــحـــانـــةٍ لـــخـــمـــرةِ الـــدِّنَـــانِ

أقـــتـــاتُ مـــن غـــنَـــائِـــي والـــعـــزفِ بـــالـــبـــنَـــانِ

ولا أُبـــالِـــي مـــا أرَىٰ لـــلـــغَـــيِّ فـــاتـــرُكَـــانِـــي

* * *

المشهد الثالث

رابعة في سوق الجواري

أشخاصه:

الراوي - برهان - بائع الجواري - ٠ النخاس - مشترون - السيد خليل - السيد عصام - رابعة

راوي الزمان:

بُـــرْهَـــانُ نـــحـــوَ سُـــوقٍ ... بـــبـــصـــرةِ الـــقِـــيـــانِ

برهان:

نـــادَىٰ إلـــىٰ الـــنَّـــخَّـــاسِ ذي ... بـــنـــتِـــي إلـــىٰ الـــهَـــوَانِ

مَـــنْ رامَـــهَـــا فـــحـــسبِـــي ... خَـــمْـــسٌ ودرهـــمَـــانِ

فـــيُـــوسُـــفٌ مـــن قـــبـــلـــهـــا ... قـــد بـــيـــعَ في الـــفـــتـــيـــانِ

وكـــان بـــدرًا ســـاطـــعـــًا ... وكـــانَ في ريـــعَـــانِ

أبـــيـــعُـــهَـــا وأمـــضـــي ... كـــمـــا رأتْ تـــهـــانِـــي

ولـــيـــحـــظَ مُـــشـــتـــريـــهـــا ... بـــالـــحُـــسـنِ غُـــصْـــنَ بَـــانِ

بائع الجواري:

يـــا شـــيـــخُ تـــلـــك مِـــنِّـــي ... مـــن ثـــمـــنٍ ألـــفـــانِ

وامكُثْ مَعِي لحينٍ فالسوقُ في رِهَانِ

راوي الزمان:

وينصبُ المزادُ وقدرُهَا يُزَادُ
نادىٰ مُثمنوها والمشترون زادوا

النخاس:

جاريةٌ خَلُوبٌ مَنْ ذَا لهُ تُرَادُ؟
فصيحةٌ لسانًا وفنُّهَا الإنشادُ

مشتر أول:

بألفٍ الشراءُ ومثلها تُزادُ
لو أنها عَرُوبٌ لحُسنها امتدادُ

مشتر ثان:

ثلاثةُ الآلافِ هل يُوقَفُ المَزَادُ؟
إنِّي لأبتغيها زوجًا لها انفرادُ

مشتر ثالث:

خمسٌ ولا ثلاثٌ آلافُهَا تَزدادُ
ولِي بها غَرَامٌ دَرَىٰ بهِ الفُؤادُ

راوي الزمان:

ويدخُلُ المزادَ عصامٌ المُرادُ

خليلٌ المناوِي له بها ارتيادُ
جميلةُ المُحيَّا وسحرها مُعادُ
فكلما يُرني لها بها يُرَىٰ اعتدادُ

السيد خليل:

بستةٍ لا خمسٍ آلافُها تِلادُ
فقدْ ورثتُ عن أبي مالاً حَبَا الأجدادُ

راوي الزمان:

وفجأةً عصامُ يسوقِهِ مُعَادُ
يرنُو لها ويهفُو وللهوَىٰ اشتدادُ

السيد عصام:

هذِي لقد رأيتُهَا وضمنَا وِدَادُ
رأيتُهَا رأيتُهَا وخانِنِي اجتهادُ
فأينَ قد رأيتُهَا وشدني اقتيَادُ؟
في الشطِّ من (أبُلَّةٍ) أم أنها بغدادُ؟
قلبي لها يشُدُّنِي «ما كذبَ الفُؤادُ»
فلأدخُلنْ مزاداً وللهوَىٰ انقيَادُ
نخَّاسُ لي بسبعةٍ آلافُهَا جِدَادُ

مـــا ابـــتُـــذلَـــت بـــسـوقٍ قـــد مـــسَّـــهُ الـكـســادُ
ولا رأتـــهـــا أعـــيـــنٌ قـــد شـــبَّـــهَـــا اتـــقَـــادُ
مـــن ثـــروتـــي وربـحـهـا أصَـــحـــابَ ذاك آدُ
مـــن مـــصـــدرٍ حـــلالٍ ومـــنـــبـــعٌ يُـــفَـــادُ
مـــا مـــسَّـــهَـــا مُـــعـــربِـــدٌ بـــل لـــي بـــهـــا رشَـــادُ

السيد خليل: (**مساومة وأخذ ورد في المزايدة**)

عـــلـــيٍّ بـــالـــثـــمَـــانِـــي آلافُـــهَـــا نُـــقَـــادُ
لا مُـــطْـــلَ أو تـــريـــثًـــا مـــنِّـــي لـــمـــا يُـــعَـــادُ
وثـــروتـــي عـــظـــيـــمـــةٌ ومـــا لـــهـــا نَـــفَـــادُ

السيد عصام:

بـــعـــشـــرةٍ آلافُـــهَـــا هـــل لـــي بـــهـــا تُـــقَـــادُ؟
ولا مُـــعـــقِّـــبٌ يُـــرَىٰ فـــيـــهـــا عـــلـــيَّ زَادُ

السيد خليل:

عِـــشـــرُونَ أَلـــفِ مـــاجـــدٍ ديـــنـــارُهُ مُـــفَـــادُ
لا خـــمـــسَـــةٌ وعـــشـــرةٌ إذا غـــدَا يُـــزَادُ

السيد عصام:

مـــهـــمـــا أرادَ مُـــشـــتَـــرٍ كَـــفِّـــي لـــهـــا امـــتـــدَادُ

أمـــــيـــــرةٌ بـتـاجـهـا وقـــصـــرهـــا مُـــشَـــادُ

السيد خليل:

كـفـفـتُ عـــن شـرائـهـا «بـــانـــت هـنـا سُـــعَـــادُ»

ولـــيـــس بـــعـــدُ بـيـنـهـا يـــشُـــدُّنِـــي ارتـــــدادُ

صاحب خليل: (استغراب)

كـيـفَ الـــنـــزُولُ سـيِّـدي عـن ذا الـجـمـالِ الـفـائِـقُ؟

وأنـــتَ عـاشـقٌ لـهـا

السيد خليل:

كـــذَاكَ حُـــب الـعـاشـقِ

أبـــغِـــي لـهـا سـعـادةً مـن وجـد قـلـب خـافِـقِ

أخـــي عـــصـــامٌ نـالـهـا ولـــم أكـــن بـحـانِـقِ

ولا أُضـــيـــعُ ثـروتـي بـغـيـرِ عـقـلٍ فـائـقِ

راوي الزمان:

أفـضَـىٰ بـكـلِّ مـالِـهِ يـا لـلـفَـتَـىٰ الـغُـرانِـقِ

إنَّ الـجـمـالَ سَـاحِـرٌ لـدَىٰ هُـيَـامِ الـذائِـقِ

السيد عصام:

حُـســنٌ لـــهُ مـذاقُـــهُ سُـبـحَـانَ صُـنْـعِ الـخـالِـقِ!!

أوحَى لها بسرِّهِ مَنْ كُلِّ حُسنِ لائقِ
وفيهِ سورةُ الهُيَا مِ للجمالِ الشاهِقِ

السيد خليل:

مُباركٌ مزادُهْ وعبرتي باللاحِقِ
أخي عصامُ فَاهنَ قدْ جُنِّبتَ كل عائقِ
فانعم بها حُوريَّةً عُذريةَ المَفَارِقِ

السيد عصام:

حُييتَ من منافسٍ لكوكبِ المشارِقِ
شمسٌ وبدرُ ظُلمةٍ من شارقٍ لشارِقِ
عشقتُها وحُبُّهَا ضياءُ ليلي الغاسِقِ
رُوحِي التقت بروحها ريَّا لقلبٍ حارِقِ

راوي الزمان:

قضَىٰ عصامٌ ليلةً بأجملِ الخلائِقِ
رابعةٌ وإنها أولَىٰ بحُسنٍ رائِقِ
ما مثلُهَا خريدةٌ حقيقةُ الحقائقِ

* * *

المشهد الرابع

حوار في عش الزوجية

أشخاصه:

عصام - رابعة.

رابعة:

في يـقـظـةٍ أمـامِـي أمْ ذاكَ في مَـنَـامِ؟

عصام:

في يـقـظـةٍ وصـحـوٍ حـقـيـقـةُ الـهُـيَـامِ
لا نـومَ بـعـدَ صـحـوٍ والـنَّـيْـلِ لـلـمَـرَامِ
مُـنـذ الـتـقـا (أبُـلَّـةٍ) وقـدْ سَـرَىٰ غَـرَامِـي
مـا غِـبْـتُ عـن خـيـالِـي يـا ربَّـةَ الـقـوَامِ
يـا جـنَّـةً بـأرضٍ زُفَّـتْ إلـىٰ عـصـامِ
مـلـكـتِ نـبـضَ مُـهـجـتـي في الـظـعـنِ والـمُـقَـامِ
وشـاءَ ربِّـي أن تُـرَىٰ في الـصـحـوِ لا الـمـنـامِ
يـكـفـي بـك الـتـلاقِـي يـا دُرَّةَ الأنـامِ

رابعة:

يـــا ســـيـــدي كَـــرَامَـــةٌ مـــن عـــالِـــم الإلـــهـــامِ
ربـــي أرادَ جَـمْـعَـنَـا مـــن بـعـــدِ الانـــفـــصَـــامِ

عصام:

قـــد ســـاقـــنِـــي إلـــهـــي لـــســـاحـــةِ الـــسَّـــوَامِ
أفـــقـــتُ مـــن غـشـيـتِـي وفُـــــزتُ بـــالـــوســـامِ

رابعة: (هيام متبادل)

هُـــنِّـــيـــتَ ســـيـــدي بـمـا أُولِـــيـــكَ مـــن هُـــيَـــامِ
كـأسـي وخـمـرتِـي وصَـابـي مـــن أكـــؤس الـــمـــدام
خـمـرُ الـشـفـاهِ لا الـطَّـلا وخـــمـــرةُ الأيَّـــــامِ
أَذَقْـــتُـــهـــا وذُقْـتُـــهَـــا مـــن وَقْـــدةِ الـــضِّـــرَامِ

عصام:

حُـــبِّـــي لـــكِ الـحُـمَـيَّـا فِي كـأسـهـا الـمُـسَـامِ

رابعة:

وأنـــتَ لِـــي غَـــرَامِـــي دُنـــيـــاي مِـــنْ أُوامِـــي
فـــانـــعـــمْ بـــهـــا هـنـيـئـًا مـــن خـــالِـــقِ الأنَـــامِ

عصام:

مـــن دُرَّةٍ حُـــوريـــةٍ مـــن جـــنـــةِ الإلـــهـــامِ
بـــكـــلِ مـــا مـــلـــكـــتُـــهُ أفـــديـــكَ يـــا غَـــرامِـــي
بـــشـــروتِـــي بـــمُـــهـــجَـــتِـــي شُـــفـــيـــتُ مِـــنْ سَـــقَـــامِ
قـــدْ كُـــنـــتُ تـــائـــهـــاً بـــعـــا (م) لـــمـــي وعـــادَ لـــي زمـــامِـــي

راوي الزمان:

ويُـــشـــرقُ الـــصَّـــبَـــاحُ ويُـــزهـــرُ الأقَـــاحُ
رابـــعـــةٌ بِـــحُـــســـنـــهـــا تـــتـــوقُـــهَـــا الأرواحُ
لـــكـــنـــمـــا عـــصـــامٌ تـــهـــزهُ الـــريـــاحُ
مـــالُ الـــتـــجـــارِ صَـــبَّـــهُ وعـــزة الـــجـــنـــاحُ
أتـــىٰ تـــجـــارُ بـــلـــدةٍ وكـــلـــهـــم صِـــيَـــاحُ

التجار:

لـــقـــد أضـــعـــت مـــالـــنـــا وأقـــفـــرت بِـــطَـــاحُ
بـــغـــادةٍ شـــريـــتـــهـــا أ مـــالُـــنَـــا يُـــبـــاحُ؟

السيد عصام:

لـــمـــا لـــكـــم صـــيـــانـــةٌ ولـــيـــس يُـــســـتـــبـــاحُ
حـــقـــوقـــكـــم أمـــانـــةٌ مـــتـــىٰ بـــهـــا يُـــتـــاحُ؟

التجار:

ومـــا الـــذي تُـــريـــدُهُ إن قُـــبِـــلَ اقـــتـــراحُ؟

السيد عصام:

مـــيـــســـرةٌ تـــتـــاحُ لـي

التجار:

كـــلا فـــلا مَـــتَـــاحُ

نُـــريـــدُ كُـــلَّ مـالـنـا ومـــا لـــنـــا بـــراحُ

أو أن تُـــبـــاعَ غـــادةٌ عُـــكُـــومُـــهَـــا رَدَاحُ

ونـــســـتـــردُّ مـــالـــنـــا أو مَـــسَّـــكَ اجـتـيـاحُ

السيد عصام:

مـــالـــي ولا لـــكـــم بـهـا ذنـــبٌ ولا جُـــنَـــاحُ

عـــروسُ داري دونـهـا لـــو تُـــشـــهـــرُ الـــرمـــاحُ

حـــررتـــهـــا مـــن رِقِّـــهَـــا ونـــالـــهـــا انـــشـــراحُ

أ بـــعـــدَ ذا أبـيـعـهـا يُـــغْـــدَىٰ بـهـا يُـــراحُ؟

رابعة: (فدائية)

يـــا ســـيـــدي أفـــديـــك بـي ومـــا بـــك اجـــتـــراحُ

لـــي الـــغـــنـــاءُ حـــرفـــةٌ وفـــيـــه لـــي بـــراحُ

دعني أغني والذي أنا اللهُ رَبَّاحُ
أو ان تشأ فبعني للدين لو أتاحوا

السيد عصام:

رابعةٌ مُحالُ للرقِّ أن تُباحِي
ولا الغناء أرضَىٰ لربةِ الملاحِ
أبيعُ نفسي للردىٰ ولم أدع سلاحِي

السيد خليل: (**ملتفتاً إلى السيد عصام**)

يا سيد السجايا عصامُ ذا اقتراحِي
تظلُّ في فنائِي رابعةٌ براحِي
وعند دفعِ دينٍ لفترةِ السماحِ

السيد عصام:

جُزيتِ كُل خيرٍ فعلتَ بي خليلُ
وكل ما اقترحتهُ لفعلةٍ دليلُ

السيد خليل:

رابعةٌ ببيتي أنا بها الكفيلُ

السيد عصام:

رابعةٌ بِدَارِي وما لذا بديلُ

تبقَىٰ بها ونُوقِي دَنَا بها وُصُولُ
وكُلَّ ربِّ دينٍ لديننِهِ يَنُولُ

التجار:

إلىٰ قضاءِ بصرةٍ مِنَّا له قبُولُ
يقضي بما يراهُ نرضىٰ بما يقولُ
بددتَ كل ما لنا والْمَطْلُ مستحيلُ

السيد عصام:

أمضُوا لما أردتُمْ وكفَّكُمْ يطُولُ
ما جئتُ من جنايةٍ دمٌ بها يسيلُ
أعتقتُ نفسَ حرةٍ لروحها ذُبُولُ

راوي الزمان:

يُعرضُ الأمرُ للقضَا إذِ بهِ يُقْبَلُ الرضا
آخر الأمرِ قد قضىٰ هل سوىٰ ذاكَ مُقتضَىٰ؟

السيد عصام:

أمر قاضي الحِمَىٰ له ما أرىٰ فيه مَرْفَضَا
يا أخي السيد الذي كان لي قد تَعَرَّضَا
بِعْ لداري وأرضها سدد الدين مُقتضىٰ

السيد خليل: (**حيلة غير كريمة من خليل ينفذ لإذلال رابعة**)

رابـــــعـــــةُ أمـــــانـــــةٌ حـتـىٰ إذا الـحـبـس انـقـضـىٰ
لـــــك مـــنـــي أُعـــيـــدهـــا عِـــرْضُـــهَـــا صـيـن مـرتـضـىٰ

السيد عصام:

لـــــكَ مـــنـــهـــا ولاؤهـــــا حـيـثـمـا رُمـــــت مـقـرضَـا
وابـــــغِ مـــا شـئـتَ بـعـدَ ذا مـــا تـــرىٰ أن أعـــوضَـــا؟

السيد خليل:

لـــي شـقـيـقٌ وصـاحـبٌ عُـــوِّضـــًا لـــن أُمـحـضَـا
هـــي لـــي أختُ مُـلـتـقِـىٰ شـئـتَ أو لـم أشـأ رِضَـا

* * *

الفصل الثاني

رابعة في رحلة عذاب

المشهد الأول

في بيت السيد خليل

أشخاصه:

(١) راوي الزمان. (٢) رابعة. (٣) السيد خليل.

(٤) زوجة السيد خليل. (٥) خادم.

السيد خليل:

أنـــتِ لـي الـيـوم مِـلـك الـيـدِ رابـعـــةُ أنـــتِ حُـلـم الـغـدِ

نـلـتُـكِ الـيـوم ومـا مـن سيـدٍ يَـدعَـىٰ عصامًا فـانبُـذِي أوْرِدِي

زوجـــــةً مـحـظـيـةً حُـــرةً أو أَمـــةً فِي الـقـيـدِ مـن أعـبُـدِي

ولـــكِ الـخـيـرةُ فـيـمـا رُمـتِـهِ غـيـر أني حـالـفٌ مـا أعـتـدِي

راوي الزمان:

وتـــمـــــرّ الأيـــــامُ رابـــعـــــةٌ تُـــسـتَـــامُ

وعـــصـــامٌ في سـجـنٍ رابـــعـــــةٌ أ تُـــضـــامُ؟

السيد خليل:

رابـــعـــــةٌ أهـــــواكِ وســأســعــىٰ لـــرضـــاكِ

أبغيكِ رضا قلبي وأهيمُ بنجوَاكِ
لي زوجًا أبغيها وكفانِي دُنيَاكِ

رابعة:

أَوَ أُنسيَ لحبيبي وأخُونُ لهُ عهدَا
كلا لن أنسىٰ لعصامٍ ما أدَّىٰ
ولئن عهدًا أنسَىٰ قد جئتُ إذًا - إدًّا
منهُ تنهدَّ سَمَا وتَخِرُّ رُبىً هدَّا
هيهاتَ لهُ أنسَىٰ وسيجعلُ لي وُدَّا

السيد خليل:

إنسَي رابعةٌ شيئًا يُدعَىٰ من بعدُ عصامَا
أنا زوجكِ يا هذي كم بك قد أُغرمتُ غرامَا
لكِ كُلُّ رصيدي مالاً وأبلُ بنجواكِ هُيامَا
وأراكِ لي الدنيا طُرًّا حُبًّا وغرامًا ومُدامَا
أَوَ لست بخالصتي عشقًا قد فاقَ مداهُ تهيامَا؟
قد علقت روحي وفؤادي بكِ رابعةٌ جَامَا

رابعة:

هيهات لشيء تبغيهِ مني لو تمضي أعوامَا
رُوحي قد وُهبتْ لعصامٍ وأقاومُ فيه الأيَّامَا

لـــن تـبـلـغَ مـنـي خـاطـئـةً أو تـلـمـسُ جـسـمـًا أو هـامَـا
بـعـنـي إن شـئـت سـأبـقـىٰ لـعـصـامٍ بـــردًا وسـلامَـا
سـأظـلُّ عـلـىٰ عـهـدي حُـبًّـا لـن أنـسـىٰ عـهـدًا وذِمَـامَـا
إن كُـنـتَ تـظـنَّ بـي الـسُّـوأىٰ لـعـصـامٍ تُـسـقَ الأسـقـامَـا
الـحُـبّ كـتـابٌ عُـذريٌّ لـحـبـيـب في الـقـلـبِ أقـامَـا

السيد خليل:

أسـقـيـكَ عـذابَ الأيَّـامِ إذ لا تـشـفـيـنَ أُوامِـي
أحـبـبـتُـك حُـبًّـا أعـمـانِـي مـاذا مـن بـعـدِ هُـيَـامِـي؟

رابعة:

مـا أنـتَ بـذائـقـهِ مـنِّـي لـو قُـطِّـعَ جسـمي بـحُـسَـام
الـحُـب طـريـقـي وسـبـيـلـي لـو أمـكـثُ عُـمـرَ الأيَّـامِ

السيد خليل: (**متوعدًا ويلتفت إلى خادمه رسلان**)

سـأُذيـقُـكِ ألـوانَ عـذابٍ في عـمـلٍ مُـرٍّ مُـتـرامِـي
سـأظـلَّ أُحَـمِّـلُ أحـطـابًـا لـكِ طـولَ نـهـارِ وظـلامِ
تـمـشـيـنَ عـلـىٰ سُـلَّـمِ دارٍ شـمـاءَ بـحِـمْـلٍ مِـسْـقَـامِ
جـهـدٌ مـع جـوعٍ مـع ضـربٍ مـع سـلِّ عـظـامِ الأقـدامِ
وأُمـزقُ جـلـدكِ أشـلاءً وأدقـكِ دقـًا بـعـظـامِ

يا خادمَ داري رسلانُ مزقها بالسوطِ الحامِي
جَنْدِلْهَا ظهرًا عن بطنٍ جَرِّعْهَا الأهوالَ أمَامِي
حَمِّلْهَا أجولةً شتَّىٰ من خشبٍ وأذقها جامِي
جَرِّدْهَا ثوبًا عن جسدٍ في حبلٍ من مسدٍ دامِي

الخادم رسلان:

حمَّالةَ أحطابِ ذُوقِي ويلي وعذابِي وحِمامِي
كلَّفني السيدُ طاعتَهُ والطاعةُ دأبُ الخُدَّامِ
سيري حاملةً حطبًا وحجارةَ فحمٍ قُدَّامِي
والسَّوطَ يدي في آخرِهِ والطرفُ اللسَّاعُ أمامِي
رابعةٌ ما أنتِ برابعةٍ في القدرِ سوىٰ ذُلِّ مَقامِ
يا عبدةَ سيدةٍ سُواي ما صانتْ نعمةَ إكرامِ
للسقفِ العالي من دارٍ أحمالاً ذُوقِي إطعامِي
أطعمكِ الضربَ وألوانًا من شد الشعرِ بإبهامِي
لا ماءَ ولا أكلَ وسيري أيامًا.. أو دُونَ إدامِ
أو عُودِي لغناءٍ أمدًا والنأيُ لبثِّ الأنغَامِ
للسيدِ أو صحبٍ سَكِروا من خمرٍ صهباءَ فِدَامِ

رابعة:

سأغني لا بأس ونايي أنفثه خافِيَ آلامِي
وسأشكو بثي لغنائِي ولنايي بين الأقوامِ
وأعُبَّ للذاتِ الدنيا جسمًا لا رُوحًا بغَمَامِ
وسأشربَ خمرًا تُنسيني ما ذُقتُ بماضِي أيَّامِي

ثوبان: (**رجل من أهل الذكر**)

ظمآن ألا جُرعةَ ماءٍ أُسقَاها لأُبل أُوامِي؟
أنا عابرُ سمتٍ وطريقٍ في ذكرِ اللهِ العَلاَّمِ
أسقوني من شربةِ ريٍّ لا أظمأ منها أنغامِي
أنغامي الذكرُ أُرتلُهُ من آي كتابٍ وإمَامِ

أحد رجال الحانة:

يا هذا ذي حانةُ خمرٍ لا مسقَىٰ ماءٍ للظامِي
إن شئتَ فخُذْ كأسًا منها أو عُدْ لسبيلكَ من ذَامِ
واغرُبْ عن حيٍّ وجهًا أو فاسمع من مُرّ كلامِ
بكَ من ذا قد جاءَ إلينا إن لم تسترشِفْ لمُدامِ؟

رجل آخر:

أو فاخلع لعباءةِ شيخٍ وأقذفها خلفَ الأكوامِ

ما اللذةُ إلا بغبُوقٍ وصبُوحِ الوجهِ البسَّامِ
ما أنتَ أيا هذا الفانِي والكاسِرَ عظمِ الأيامِ
أو ذكر في حانةِ خمرٍ يا هذا غُر[1] من قُدَّامِ[2]

راوي الزمان:

تدنو رابعةٌ من رجُلٍ يا هذا فلتشربْ جَامِي
أ أُغني لك أو ستُغنِّي للكأسِ وللرقصِ أمامي؟
أوْ أنفثُ في الناي وتُصغِي مع كأسِ الرابعةِ الطَّامِي؟

* * *

(١) غُرْ: (بلهجة صعيد مصر) معناها: اذهب بغير رجعة.
(٢) من قُدَّامِ: من أمامي.

المشهد الثاني

رابعة راجعة إلى ربها

أشخاصه: (١) ثوبان. (٢) رابعة.

ثوبان: (**رجل زاهد**)

لا كـأسُـكِ تُـشفِـي مـن ظَـمَـئ لـــولا تُـــدلـــيـــنَ بـأسـقـامِ
لا كـــأسَ لـخـمـركِ أُسـقـاهَـا أو أُســقَــىٰ كـاســاتِ أثَـــامِ
سـأُغـنِّـي لـــكِ مـــنْ قِـيـثَـارِي أنـغـامـــًا تَـــزجَـــىٰ لـــمَـــرَامِ
آيـــــاتُ كـتـابِـي لـــي كـأس مـــن خـمـرِ الـجـنـةِ لـلـظَّـامِـي
بـرحـيـقٍ مـخـتـومٍ سَـلِـسٍ لا غَـــــوْلَ بـــهِ مِـــــنْ آثَـــامِ
بـل خـمـرةُ عـشـقٍ صـافـيَـةٌ مـــن كـــدري مِـــــنْ الـــهَـــامِ
كُـفّـي عـن دنـــسٍ أو تُـوبِـي للهِ أبـــثُّـــكِ تـهـيَـامِـي
تـهـيـامِـي في ذاتِ إلـهـي وهـــــواهُ عـــذبُ الأنـــسَـــامِ
كـالـمـاءِ لـظـامـيءِ تـشـرَابٍ مـــن عـــلـــلٍ أو مـــن أوهـــامِ
يُـسـقـاهـا فـتُـولِّـي عـنـهُ ويـعـودُ لـعـالـمِـهِ الـسَّـامِـي

رابعة:

أسمعني يا شيخُ لصوتٍ أطربني أذْهِبْ أورامِي
أورامِي من علَلِ الدنيا وغيابة رُوحِي بسَقَامِ
قد ماتَ أبي ماتت أُمي قد ماتَ حبيبُ الأيَّامِ
إني للسَّكْرَىٰ من همٍّ من دَنّ خمورِ الأعوامِ
من خمرِ الإثم أُجرَّعُهَا من كأسِ الدهرِ بإرغامِ

ثوبان:

من خمرٍ لا غولَ شرابِي وشرابُكِ من كأسِ حرامِ
أفلا أهرقتِ ثُمالتهَا في الأرضِ لأشواكِ ثُمَامِ؟
خمري لا خمرُ الدنيا شافيةٌ من لينِ عظامِ
من عينٍ تُدعىٰ تسنيمًا لرحيمٍ في دارِ مُقَامِ

رابعة:

اسقِ الأقوامض ولي كأسًا تمحُو لجراحِ الأسقَامِ
قد تبتُ لربي راجعةً من عب خطايا الآثامِ
اشربها ليلاً وصباحًا في عالمِ أرواحِ هُيَامِ
سأعودُ ويكفيني الماضي لو عادَ الماضي قُدَّامِي

ثوبان:

وفقكِ المولىٰ لصلاةٍ ودُعاءٍ يُرجىٰ وصيامِ

لو يُهدَىٰ رجلٌ أو أنثىٰ حسبي من هذي الأقوامِ
وهدايتكِ الهدفُ الأسمىٰ من عملي فعلي وكلامي
أدَّيتُ بها قُربةَ روحٍ للهِ بحانةِ لُوَّامِي

رابعة:

ثوبانُ أيا ساقي روحي خمرًا من دَنِّ سَامِي
آمنتُ بربي وإليهِ رَجَعَتْ أيَّامِي لقوَامِ
للهِ دُعائِي ومتَابِي نُسُكِي وصلاتِي وصيَامِي

ثوبان:

زاهدةٌ رجعتْ لطريقٍ من تحتِ سديم الأجرامِ
رابعةٌ تائبةٌ عادتْ لحبيبٍ جَمِّ الأنعامِ

رابعةٌ:

لحبيبٍ ذلَّلَ لي سُبُلِي وإليه ألقيتُ زمَامِي
ورجُوعِي كان بدايتها لطريقٍ جاذبَ أقدامِي
فمضتْ حوبائي تسلكُهُ نفسي وثيابي وعظامِي
وخلعتُ ثيابًا من دنسٍ خَلِقَتْ من طُولِ استخدامِ

* * *

المشهد الثالث

راوي الزمان يحدثنا عن رابعة ويضعها في الميزان

أشخاصه:

راوي الزمان - رابعة - ثوبان (الشيخ) - سائل - الخادم - السيد خليل - دلال (زوجة خليل) - بعض رجال الحانة.

راوي الزمان:

بنتُ (الأُبَلَّةِ) ذاتُ الحسنِ والألقِ ... وربَّـةُ الـدَّلِّ ذاتُ الكأسِ والحدَقِ

ومـن غـدت فتنةَ الألبـابِ تخلُبُها ... بنبضِ سحرِ جمالٍ شعَّ من غسَقِ

من تربةِ الأرضِ من طينٍ ومن علقٍ ... من نسلِ زوجينِ عاشا فترة الشبقِ[1]

أمـا غـدت فتنةً طـافَ الخيالُ بها ... وعادَ للأرضِ يشكُو شدةَ الرَّهَقِ؟

وربـــةُ الـغُـصـنِ مـيـاد بـــهِ ثـمـرٌ ... تهفو له الأعينُ السكرىٰ من العبقِ

حيثُ العبيرُ: عبيرُ الحُسنِ مازجَهُ ... ونشوةُ الـروحِ من صُبحٍ ومُغتبقِ

كأسانِ من خمرةِ الأشـواقِ أُترعتا ... لمن أحس الجوىٰ أو جمرة الحُرَقِ

والسكرُ بالخمرِ من كاساتِ «رائعةٍ» ... تُدعىٰ «برابعةٍ» كالشمسِ والشفقِ

وردُ الـخُـدودِ وتُـفَّـاحُ يشوبهما ... بـحـمـرةٍ ومـــذاقٍ غـيـرِ مُـختـلَـقِ

---

(١) الشبق: شدة بلوغ الشهوة حدها الأقصىٰ من الغلمة بين الرجل وامرأة.

ونـاضـجُ الـقَـدِّ مـن رُمـانِ أغصُنِهِ ... من فـوقِ صـدرٍ عـلاهُ التيهُ لم يُفِقِ
وعقدها ذو السُّموُطِ الصدرُ لامسهُ ... من موقعِ الجيدِ بالحبَّاتِ مِنْ عُنُقِ
الليلُ والصبحُ والعَينانِ بينهما ... والـحـاجـبـانِ وثغر شُـقَّ عـن فلقِ
عـن لـؤلـؤٍ وجُـمـانٍ في زبـرجَـدِهِ ... والأنـفُ حاكِمُ عدلٍ غير ذي نَزَقِ
وموضعُ القُرطِ من صُدغيهِ يسحرني ... كنجم أُفقِ خلال السحبِ مُنفتقِ
ونـظـرةٍ مـن سنا العينينِ تسحبها ... تـرنُـو إلـىٰ أمـلٍ بـالـبـشـرِ مُنبثِقِ
تـطـلـعـًا لـحـبـيـب نـحـو مـقـدمـهِ ... لـمـوعـدٍ في مـكـانٍ عـنـد معتنقِ
خمرُ الأنـوثـةِ في جسمٍ وأغْصِنِهِ ... ما بينَ (رنـدٍ وبـانٍ) دُونَ مُفترقِ
ودعصِ رملٍ مشىٰ من ثُقلِ مَحْمَلِهِ ... من غُصن «بانٍ» أبانَ الصدر في رهقِ
ومـوقـعُ الـجـيـدِ مـن قَـدٍّ وهـامـتِـهِ ... من بُرقُعِ الوجهِ مُوضوعٌ علىٰ نسَقِ
طلا السماءِ جَـرَتْ نهرًا بجبهتِهِ ... وزورقُ الحُسنِ لم يجنح إلىٰ الغرقِ
شمسٌ إلـىٰ خدرها آوتْ مُخلفَةً ... من لجةِ الشفقِ المشبوبِ بالأُفُقِ
نـــارًا بـغـيـرِ لـهـيـبٍ في تـحـرُّقِـهِ ... وخمرةٍ من غُروبِ الشمسِ منهُ سُقِي
إنـسـانـةٌ مـن ثـرىٰ الـغـبـراءِ نشأتها ... وسحرها مـن ضـيـاءٍ جِـدِّ مُؤتلِقِ

سائل:

أ تـلـكَ رابـعـةٌ في روقِ جلوتها ... وحيثُ غُصنُ الصبا مُخضوضرُ الورقِ؟
وإن تـكـن هـي أنَّـىٰ قـيـل زاهـدةٌ ... في حب ذاتٍ برت للخلقِ من علقِ؟

أ تبدأ الـزاهـداتُ الـعُـمْـرَ عاشقةً حبيبَ قلبٍ وتشكو الوجد في حُرقِ؟
أمـا أنـهـا بـدأت في الأصـل غانيةً حبَا الجمالُ لها ما شاءَ من تَوقِ؟
كـأنـمـا هـو وقـفٌ وهـي مـالـكـةٌ لـهُ وللغيرِ منه البعضُ من رَمَـقِ

راوي الزمان:

حيـاتُـهـا في صـبـاهـا فـتـنـةٌ وهـوًىٰ وزاهـدُ القومِ ربَّـاهَـا علىٰ الخُلُقِ
أوحَـىٰ إليها بـأن الحُسن مملكةٌ ستستردّ ومـا حُـسـنٌ هُـنـاكَ بَقِي
والـخـمـرُ في كأسها مُـرٌّ مُعلقمَةٌ والرقصُ والزمرُ طيشٌ أومِنَ الحَمَقِ
وكُـــلُّ مـــالٍ أتـــىٰ مـنـه لـزائـلـةٍ تـجـتـاحُـهُ كـرمـادٍ بـعـدَ مُـحـتـرَقِ
وصـالـحُ العمل الباقي لصاحبِهِ يـومَ الـجـزاءِ وآتـىٰ السوءِ في فرقِ

رابعة:

يا ذلك الشيخُ هل ذُقت الهوىٰ أمدًا بـذاتِ دلٍّ كمثلي ربـةِ الحلقِ؟
وربـة الـسـاق خـرسـاءُ أسـاورهـا وصمتُ خلخالها كالعقدِ في العُنُقِ
مـــن أنـــت يـــا شـــيخُ؟

الشيخ:

ثوبـــانُ

رابعة:

أذُو نُسُكٍ؟ أو زاهدٌ أنتَ؟

ثوبان:

لا بـل داعٍ استـبـقِـي

ثـوبُ الـجـمـال رقـيـقٌ في غلالتِهِ ... وليسَ يُجديكَ نفعًا يـوم مُستبقِ
تفنَىٰ الـلـذائـذُ مـن خمر وحانتها ... ومِنْ رخيصِ الهوىٰ المعجونِ بالنزقِ
وكـل مـا تشتهيه النفسُ مـن مُتعٍ ... يـزولُ مـن عالم الدنيا فـلا تثقِي
يـبـدو كمثلِ سـرابٍ عبر قيعتهِ ... ولـيـسَ يبقىٰ سـرابٌ لـجّ في غـرقِ
مـاءٌ ولـيـس بـمـاءٍ في بُـحـيـرتـهِ ... بل وهمُ نفسٍ لدىٰ شتىٰ من الطرقِ
وفيك مسرىٰ نـقـاءٍ طـاب معدنُهُ ... كالتبر في التُربِ: أو كالدُّرِّ في العُمُقِ
فلتخلعي ثوب هذا الجسمِ والتزمِي ... ثوبَ العفافِ دَعِي الغرقىٰ وفيَّ ثِقِي

بعض رجال الحانة:

أفسدتَ يا شيخُ مِنَّا ليلةً هَرَقَتْ ... كأس الهوىٰ فلتدعنا نحو مُنزلَقِ
واذهب إلىٰ حيث رامت نفسُ مُتشح ... «رداء صُوفٍ» أو المُلقَىٰ من البِدِق
أو حيث أُلقت برحلٍ أُمُّ قشعمها ... أو مِنْشِمٌ حين دقت عطر مُنتشقِ

ثوبان:

أدعـو لـك الله لا أدعـو عليك بهِ ... يـا مـن رمـاني بما يرميه مـن حبَقِ
أدعـو لك الله لو يهديكَ من عمهٍ ... ومـن ضـلالٍ وفـسـقٍ بعد مُتسقِ

رجل آخر من رجال الحانة:

عَكَّرتَ صفوًا علينا فامضِ مُنتبذًا ... عنا بـعـيـدًا ودعـنـا يـا أخـا الأَبَـقِ

أبقت عن حاننا واسْتَقْتَ عاصفة من اللهيبِ بحانٍ للهوَىٰ مـذِقِ

رجل ثالث:

من أين أنتَ؟ ولا ندريك رب تُقًىٰ إن رُمتَ شربةَ ماءٍ فأحسُ من عرقِ
أو قم فَبُلْ فوق كوب رُحتَ تشربُهُ من حالبِ النَّزِّ لا من حالبِ الغبقِ

رابعة:

لا يا أخا النزقِ الثَّاوِي لِقِمَّتِهِ في الوحلِ والغارقُ الماضي لمنسحقِ
ما عُدت للخمرِ أو رقصٍ يُحمِّلُنِي وزرَ الحياةِ ولا نايٍ من الخرقِ
خلعتُ ثوب مُجونٍ كادَ يُرهقني ورُمتُ ثوبي من صوفٍ ومن خرقِ
خلعتُ ثوب مُجونٍ كادَ يُرهقني ورُمتُ ثوبي من صوفٍ ومن خرقِ
يا أيها الماجنونَ اللهُ يطلبنِي إليه سعيًا حثيثًا بي إليهِ رُقِي
الروحُ مني سمت تهفو لخالقها شوقًا إليه لبابٍ غيرِ ذي غلقِ
بل للسماواتِ مفتوحًا طرائقها إلىٰ الخلودِ.. وما أمسىٰ بمنغلقِ

ثوبان:

سعادِتي بهُداكِ اليومَ رابعةٌ يفُوقُ كل كنوزِ الأرضِ من وَرِقِ
اللهُ قابلُ توبِ اللائذين بهِ والعائذينَ من الآثامِ في شفَقِ
سيري إلىٰ اللهِ واختاري محبتهُ عن كل شيء بُطهرِ الروح فانطلقِي

رابعة:

هذا سبيلي دعانِي نحو غايتهِ يا نفسُ تُوبي ورُودي خير مُنطلقِ

طَلَّقْتُ دُنيا مُـجُـونٍ عِفْـتَ لذتها ليفتحَ الله لـي مـا شـاء مـن طـرُقِ

راوي الزمان:

لـهـا دعـا بـقـبـولٍ عـنـد خالقها وقَابِلُ التوبِ من مغرورق المؤقِ
مـن عـاد لله غـشَّـاهُ بـتـوبـتـهِ وردَّهُ طـاهـر الأغـصـانِ والـورقِ
كـروضـةٍ ذات زهـرٍ مـثـلُـهُ ثمرٌ مَـرَّ الحيا فوقها في وابـلٍ غَـدِقِ
أزالَ عنها القـذَىٰ من كل باسقةٍ من أعينِ الـدوحِ من بـادٍ ومُنغلقِ
وقـد سـرىٰ قلبها الإيـمـانُ يملأها من أخمصِ الساقِ حتىٰ الصدر والعُنُقِ
وكـان سيدها الـشـاري لشهوتهِ قد ضاق ذرعـًا ومنها الإثمَ لم يذُقِ
أوصـىٰ بها أن تُسامَ الـرق يرهقها سوء العذابِ سياطًا كُن في سَبَقِ
من كف عبدٍ عِتيٍّ القلب حَمَّلهَا ما لا تُطيقُ ومـا ضجت بمرتهقِ

رابعة:

ربـي تـرىٰ حالتي فـارحـم معذبةً مـن قـسـوة الـرقِّ إني منه في رهـقِ

الخادم:

سـتـمـكـثـيـن بـهـذا الـــرقِّ بـاقـيـةً أو تـخـرُجُ الـــروحُ

رابعة:

لا بـل لـسـتَ مُختنقِي

الـروح في يـد ربـي لست تملكها وأنـت عـبـد رقـيـقٌ رازحُ الـربـقِ
ربـي بحالي عليمٌ وهـو يرحمني مـن سيدٍ فـظ قلب غير ذي رَفَـقِ

السيد خليل:

عودي إلىٰ الخمر تحمل عنك وطأتهُ ولـلـغـنـاء ففيه الـــروحُ مـن أرقِ

راوي الزمان:

قـالـت مَـعـاذَ إلـهـي أن يُشاهدني مع الخطيئة بعد العتقِ من فسقِ

السيد خليل:

ملكتُ منك إسار الجسمِ ملءَ يدي تُعذبين بـألـوانِ الـعـذابِ سُقِي

رابعة:

الـقـلـبُ في يـد مـن أحـببـتُ رقتهُ وتُقتُ شوقًا إلىٰ لُقياهُ في الغسقِ
في ساعةٍ تَفْضُلُ الدنيا بأجمعها وخـافـقِـي في ثـنـايـاهـا بـمـتـثـقِ
والليلُ مِرْوَحَتي في ظل حضرتهِ فخذ من الجسم ما تهواهُ من مِزَقِ

دلال زوجة خليل:

دعـهـا إلـيَّ فتعذيبي سيرجعها لطاعةٍ وإلـىٰ السوط حيث بقِي؟

رابعة:

ما شئتِ من غلظةٍ أو من مُلاينةً وجهي إلىٰ الله في خفقي ومُلتصقي

دلال:

عـودي لسيدك الـشـاري بثروتهِ منكِ اليمينَ فعاصيه لديهِ شقِي
وأنـــتِ عـاصـيـةٌ عـقـتـهُ عـاطـفـةً وأرهـقـتـه وأصـلـتـه لظىٰ الـحُـرقِ

رابعة:

الفِسقَ لا: وسبيلي الطُهرُ من دنسِ وأنتِ لا تعلمين الحُب كيف يقِي؟
حتىٰ الذي هِمْتُ فيه ليس يخذلني وسوفَ يأتي لتخليصي ومُعتنقِي

دلال:

خُذ هذه وأذقها الهونَ حاملةً تلكَ الجوالاتِ حتىٰ آخرَ الرمَقِ

راوي الزمان:

تحملت وطأة الإرهاقِ رابعةٌ وفي المساءِ لربِّ النورِ والغسقِ
وفاطرُ الكونِ في إبداع هيئتها وما كإبداعها في الخلقِ من نسقِ

رابعة:

كم رِبْقَةٍ في إسارِ الرقِّ أحملها أخطأتُ في حق باري الخلقِ من علقِ
هل في الفضيلة إلا غسلُ مأثمةٍ من الذنوبِ وإيفاضٌ لمنعتَقِ؟
ألا بذكرِ إلهٍ تطمئن رُؤًىٰ نفسي وروحي وفيه جُل مُعتشقِي

* * *

المشهد الرابع

رابعة في رحلة العودة إلى الله

أشخاصه:

(١) راوي الزمان (٢) رابعة. (٣) خادم خليل

(٤) السيد خليل. (٥) ثوبان. (٦) عبدة خادمة رابعة.

(٧) رجال من الحي. (٨) قاضي الحي.

راوي الزمان:

وتستمرُّ رابعةْ لها السماءُ سامعةْ

في الليل في صلاتها والعين فيه دامعةْ

رابعة:

رباه هب لي رحمةً واجعل طريقي واسعةْ

كرامةً تُرىٰ بأعيُن من الضياءِ ساطعةْ

راوي الزمان: (**كرامة تستلفت العقول ـ قنديل نور**)

قنديل نورٍ فوقها من السماءِ نازِلُ

أَنَّى رنتَ رأتْ له ... به همتْ سلاسلُ
حلقاتُهَا لآلئٌ ... بها الوجودُ مائلُ
شدَّ إلى سمائها ... والليلُ بحر هائلُ
والريحُ موجٌ بحرِهِ ... كأَنَّهُ قوافِلُ
وقُشعت غياهبٌ ... بها الصريمُ سابلُ
يأتي إليها خادمٌ ... بجعبة يُحاولُ
حياتها عقاربٌ ... بها المنُونُ قاتِلُ
سلَّتْ حُماها إنَّمَا ... رُدَّتْ لها حبائلُ
وخادمُ أصابَهُ ... رُعبٌ رماهُ جافِلُ
فعادَ للوراء ناكصًا ... وراكضًا يُسائِلُ

الخادم: (الخادم يصف لسيده خليل ما رآه من عجيب كرامات رابعة)

يا سيدي عجائبٌ ... والعقلُ راءٍ راقبُ
رأيتُ سيدي الذي ... عنه أُميطَ حاجبُ
رابعةٌ وفوقها ... قنديلُ نورٍ ثاقبُ
رميَ الظلام بالسَّنا ... ومنه نورُ خالبُ
يروحُ ثم يغتدي ... فذاهبٌ وآيبُ
وما انتهت صلاتُهَا ... لها أطمأنَّ جانبُ
مُعجزةٌ كرامةٌ ... عجائبُ عجائبُ

هيا معي يا سيدي إن كان منكَ راغبُ

السيد خليل:

لا بأسَ قُمْ يا خادمِي أمرُ السماءِ غالبُ
ويحي أيا رب السَّمَا إن الطريق لاحِبُ
والبرقُ ثَمَّ مُرعِدٌ تسُلُّهَ سَحائِبُ
أ تلكَ غضبةُ السما ء والظلامُ واقِبُ؟

راوي الزمان: (معجزة كرامة)

رابعةٌ يا حُسنها لها الوجودُ صاحبُ
البرقُ والسما وما له اليقينُ واجبُ
قنديل نورٍ فوقها تُطوىٰ بهِ الغياهبُ
والليلُ ساج حولها ودوننا النوائبُ؟
بحر من الظلامِ (م) والسنا به مراكبُ
واللجةُ الخضراءُ من زروعها مواكبُ
والنخلُ والأشجارُ منهُ آيبٌ وذاهبُ
سفائنٌ الخيالِ والـ ـجمالِ شدَّهَا تعاقُبُ
بواخرٌ فلائكٌ ملائكٌ جوائِبُ

الخادم:

تنبهتْ رابعةٌ وللضيَا مَسَارَبُ

أَنَّـــىٰ تـــسـيـــرُ تـجـتـلـيـ ـــهِ والـسَّـنَـا يُـجَـاذِبُ؟

رابعة:

أ سـيـدي أنـــتَ ذَا؟

السيد خليل: (**إعجاب**)

لـــســـاعـــةٍ أُراقـــبُ

رأيـــتُ مـــا رأيـــتُـــهُ لـــكِ الإلـــه واهـــبُ

مُـــعـــجـــزةٌ كـــرامـــةٌ وســـرَّهَـــا مُـصـاحِـبُ

مـــا أنـــتِ فـيـه فـلـتـكُـو نِـــي مـا عـلـيـكِ حـاسِـبُ

لا تـحـمـلـي عـبـئـًا ولا تـــريـــنَ مـــن يُـعـاقِـبُ

أنـــتِ الـطـلـيـقُ أسـرُهَـا مـــا دُونـــهَـــا مـتـاعِـبُ

بـــل أنـــتِ أنـــتِ حُـــرَّةٌ ولـلـتـقَـي مـــذاهـــبُ

خُـــذي الـــذي قـــد شئتِهِ مـــالاً ومـــا يُـنـاسِـبُ

أو فـــي مـكـانـكِ امكُـثِـي مـا فـيـهِ مَـــنْ يُـغـاضـبُ

رابعة: (**زهد وتخلص من متاع الحياة**)

يـا سـيـدي دعـنـي إلـىٰ ربِّـــي فُـــؤادِي ذاهِـــبُ

لا أبـتـغـي مـــالاً ولا شـيـئـًا يـــراهُ طـالـبُ

رب الـســمـاءِ رازقِ لـــي الـطـريـقُ راحِـــبُ

راوي الزمان:

وقد مضت رابعةٌ لربها تُصَاحِبُ
وعبدةٌ جوارها لها هناكَ جانِبُ
وفي طريقها مضتْ وقد مضت مواكبُ
رابعةٌ بزهدها لها الوجودُ صاحِبُ
الزهدُ من سفينة النَّجَاةِ للأنَامِ قَارِبُ

* * *

الفصل الثالث

فـي خلـوة الحـب

المشهد الأول

في الطريق

أشخاصه:

(١) رابعة. (٢) عبدة. (٣) ثوبان الزاهد.

(٤) راوي الزمان. (٥) بعض رجال الحي. (٦) قاضي الحي.

رابعة: (تَوَكلُ على اللّه)

ربـــي وأنـــتَ بُـغـيـتـي ومـــالـــكٌ أَزِمَّـــتِـــي
إلـيـكَ سِـــرْتُ أبـتـغِـي مـا تُـرتـجـيـهِ مُـهـجـتِـي
ذلِّـــلْ سـبـيـلَ وجـهـتِـي فـأنـتَ أنـتَ قـبـلـتِـي
عـبـدتُ ذاتـكَ الـتـي بـهـا إلـيـكَ خـلـوتِـي
هـبْ لـي إلـيـكَ الـقُـربَ واكـ ـشِـفْ مـنْ حـجـاب ظُـلـمتِي
لـعـلَّـنِـي أفـوزُ بـالـوصـولِ أو قـبـولِ تـوبـتِـي
قـدْ نـامـتِ الـنـجُـوم والـعُـيـونُ حـولَ قُـبـةِ
وقـد خـلـوتُ لـلـحبـيـبِ والـحـبـيـبُ قُـربـتِـي
فـامـحُ الـذنـوبَ عـنِّـي (م) الـتـمـسـتُ مـنـكَ أوبـتِـي

أ أنـــتَ قـــد قـبـلـتـنِـي أم لـــم أزل بـغُـربـتِـي؟
سـبَّـحْـتَ في الـسـديـمِ والأديـــمِ ذَا مَـحَـبَّـتِـي
في قُـبـةِ الآفَـــاقِ في الـ ـضـيـاءِ في الـدُّجُـنّـةِ
في مـسـبـحِ الأثـيـرِ في الـ ـعـبـيـرِ فـــوقَ لُـجـةِ
رَبَّـــاهُ أنـقـذنِـي وهَـبْ لـي مـنـكَ نُـــورَ رحـمـةِ
أنـــتَ الـحـبـيـبُ والـمُـحِـ ـبُّ والـمُـجـيـبُ دعـوتِـي

ثوبان الزاهد: (اقتراحات لاحتراف مهنة وتمحيص الرأي حولها)

يـــا رابـــعـــةٌ تـوكـلِـي عـلـىٰ الإلـــهِ أقـبـلِـي
فـأنـتِ في رحـابِـهِ بـكـل قـلـبٍ مُـقـبـلِ
ولـتـكـسـبِـي قُـوتـًا بِـهِ مـع الـعـبـادةِ اعـمـلِـي
واحـتـرفِـي بـحـرفَـةٍ تُـغـنـيـكِ عـنْ تـسـوُّلِ
فـلـلـعـبـادةِ الـمسـا ء في الـضُّـحَـىٰ تـجـوَّلِـي

رابعة:

تـركـتُ حِـرفَـةَ الـغِـنَـا ءِ في مـواكـبِ الـصّـخَـبْ
فـلا أُريـدُ أن أعُـو دَ لـلـغِـنَـاءِ والـطـرَبْ
لـديَّ قَـارِبٌ بـبـحْـ ـرِهِ لَـهُ سـأنـقـلـبْ
وفِـي يـديَّ نَـايٌ (م) عـازفُ لـدنـه اصـطـحِـبْ

ثوبان:

لا بـــأسَ نـــاي إن يـكُـنْ أوْ قـــاربٌ لـمـن ركـبْ
عـلـىٰ ضِـفـافِ دجـلَـةِ مِـنَ الـشـروقِ لـلـغـيـبْ
وأطـــربِـــي بـالـنَّـاي في الـمـساءِ مـن لـهُ رغِـبْ

عبدة: (**خادم رابعة**)

سـيـدتـي الـغـنـاءُ قـدْ يَـجُـرُّ ثـم لـلـريـبْ
وكـم يـثـيـرُ مـن مَـتَـا عِـبٍ ومـنْ نُـوَبْ؟
وقـد يُـؤخـرُ الـفُـؤَا دَ عـنْ هَـدَىٰ ومُـتـقـربْ

رابعة:

تُـجـريـنَ قـارِبَ الـعُـبُـورِ مـنـهُ تـقـتـرِبْ
ولـنـقُـلَـنَّ مَـنْ يُـريـ ـدُ رحـلـةً ومُـنـقـلـبْ
وفِـي الـمـساءِ نـرفـعَ الـ ـدُّعَـاءَ لـلـسماءِ نـطـلِبْ
وفِـي عـبـادةِ الإلـ ـهِ ثَـمَّ يُـبـلـغُ الأرَبْ

عبدة:

سـيـدتـي صـبـرًا عـلـىٰ هـذا الـشـعـورِ بـالـتَّـعَـبْ
ذاكَ الـسَّـنَـا رأيـتُـهُ بـدءَ الـدُّنُـوِّ مِـنْ رغَـبْ
مـهـمـومـةٌ أنـتَ ومَـا أرىٰ لـذاكَ مـن سـبـبْ

رابعة: (**الهاتف يقص على رابعة حالة العالم حولها ـ وصف لوسيلة القرب**)

في النومِ جاءَ هاتِفٌ يقُولُ قدركِ انتصَبْ
فدعكِ مِنْ هواجِسٍ من الشعورِ بالوصَبْ
ستغتدينَ عالمًا من حولهِ الورىٰ اضطربْ
وأنتِ في غمارِهِ كزورق قد انعطَبْ
والنَّاسُ حوله اغتدوا إليه كلهم وثَبْ
وقد عدلتِ قاربًا وراحَ يمخرُ العُبُبْ
وفِي يديكِ نايُهُ تُرنمينَ من طَرَبْ
فقُلتُ ربِّ دُلنِي إليكَ كيفَ اقتربْ؟
فإذا أرىٰ ملائكًا من حولِ فرشي تقتربْ
وتُنشدُ الألحانَ شِعْـ ـرًا للقلُوبِ يَجتَذِبْ
أحسنُ من سَمَاع قَيْنَـ ـةٍ ومزهرٍ صخَبْ
في غَسَقِ الليلِ ابتهَا ل قارئٍ حَدِبْ
يا حسنهُ الإلهُ يَسْـ ـمعَنَّ دمعةَ السَّكِبْ
وخدهُ مُعفَّرٌ علىٰ الترابِ ينسحِبْ
يقولُ يا ربَّاهُ أيْ يا سندي ومحتسَبْ
هذِي سماتُ عابدٍ من عرشِ ربةِ قَرُبْ
وقد بكيتُ أدمعًا عليَّ يا ربَّاهُ تُبْ

وقد حباني نُورَهُ وفضلهُ الذي وهَبْ
التوبةُ النصُوحُ فِي دمع العيونِ ينسرِبْ
وفِي الصلاةِ بالدُّجَىٰ إذا الصريمُ قدْ وقَبْ
وقدْ تركتَ أدمُعِي كأنَّ سيلها السُّحُبْ
يركُضَ سُرَّعًا بها إلىٰ السماءِ والشهُبْ
أخلصتِ فيهِ توبتِي وما برحتُ أرتقبْ
أ غافَر الذنوبِ ثُـ ـمَّ كاشفًا من الكُرَبْ؟
وُدِّي أرىٰ علامَةً علىٰ القبولِ تنسحِبْ

عبدة:

سيدتي ترفقِي بدمعِ عينكِ السَّرِبْ
فقد بلغتِ مبتغًىٰ عند الإلهِ ما أحبْ!!
بدمعةِ المتابِ والـ (م) ـدُّعاءِ تُكشفُ الحُجُبْ
ربي مُجيبُ مِنْ دُعا (م) ءِ مَنْ أنابَ واحتسبْ[1]
وأنتِ قدْ دعوتِهِ دُعاءَ تائبٍ رَغِبْ
واصلتِ بالمساءِ - النها (م) رَ ما شكوتِ من نصبْ
ففي النهارِ فوقَ قاربٍ وفِي المساءِ دمعُ حُبْ

(١) هذا البيت له صياغتان - الأولىٰ في النسخة المشكلة بيد الشاعر والواردة عاليه - ونسخة ثانية في مخطوط المسرحية، الوارد في مخطوط (مسافر في عمق عينين) هو:

ربي مجيب مَنْ دعا ومَنْ أنَاب واحتسب

أحببتِ خالقَ العبَا (م) دِ فيكِ حُبْ كُلِّ صَبْ
فما ترينَ بعدَ ذَا من العليِّ يُرتقبْ؟

راوي الزمان:

تهللت رابعةٌ وجاءها ثوبانُ
مُبشرًا بقُربها وإنها حَصَانُ
وكُل ذي مثُوبةٍ له بها جِنَانُ

ثوبان:

تفتحت أبوابها وغُلقتْ نيرانُ
رابعةُ بربها فُؤادُهَا هيمَانُ
بشرتِ من ملائِكٍ وطابَ الاحتضانُ
سمعتها في خلوتي لها بكِ الألحانُ
فلتأكلي وتشربي يحُوطكِ الأمانُ

راوي الزمان:

وقد مضىٰ ثوبانُ وليلُهُ وسنَانُ
والزهرُ في غُصُونٍ تُقِلُّهُ الأغصانُ
وإذ ببعضِ عُصبَةٍ بفريةٍ أدانُوا

رجال من الحي: (**إشاعة تدحضها معجزة أو كرامة**)

من أينَ ثوبانُ جئتَ للخَنَا بيَانُ

مـــن بـــيـــتِ ذاتِ خـلـوةٍ خـــلا بـــهـــا الـــشـــيـــطـــانُ
كـــلاكُـــمَـــا زانٍ لـــهُ رجـــــمٌ لـــــهُ بُـــرهـــانُ
كـــلاكُـــمَـــا خـطـيـئَـةٌ لـــم يَـــحْـــوِهَـــا غُـــفـــرانُ
ولا مـــحَـــا مَـــتَـــابٌ وركـــبُـــهـــا مُـــهـــانُ

ثوبان:

يـــا قـــومُ تـلـكَ فـريـةٌ ومـــا لـــهـــا لِـــسَـــانُ
عـــرجـــاءُ فِـــي مسيرها ونـــارُهـــا دُخَـــانُ
وإنـــنـــي لـــزاهـــدٌ وخُـــلـــقِـــيَ الـــقُـــرآنُ
رابـــعـــةٌ صـديـقـةٌ وكُـــلّـــهـــا إيـــمـــانُ
فـــلا تـــظـــنُّـــوا ريـبـةً فـــإنـــهـــا بُـــهـــتـــانُ

رجال الحي: (يصيحون ويحاجون ثوبان)

قُـــل غـيـر ذا كـلامـًا يـــا أيـــهـــا الإنـــســـانُ
جـريـمـةً فـعـلـتـهـا وجـــئـــتَ يـــا ثَـــوْبَـــانُ
مـــن بـيـتِ ذاتِ فـتـنـةٍ ودونـــهـــا الـــحِـــسَـــانُ
مـــن بـيـتـهـا تُـــرىٰ خـرجـ ـــتَ هـــل دعـــاكَ شـــانُ؟

ثوبان:

بـــشـــرتـــهـــا بـــأنـــهـــا دنـــا بـــهـــا قُـــربَـــانُ
وربـــهـــا أحـبـهـا لـذنـبـهـا غُـــفـــرانُ

رجال الحي:

وكيف ذا ونايُهَا بلحنِه افتتَانُ؟
غازيةٌ لنايها في عشقهِ حَنانُ
وفِي النهارِ قاربٌ تروِدُهُ الرُّكبَانُ
رابعةٌ بِوَكْرِهَا تهامست أركانُ
من رجلٍ ببيتها يشوقُهُ اختيَانُ

رابعة:

يا قومُ إنَّ ذا أب أ بنتهُ يختانُ؟
أ عابدٌ كمثلهِ يُزَنُّ أو يُدانُ؟

عبدة:

يا أختُ لنا وزاهدٌ والّلهُ مُستعَانُ
شيخ كهذا يُفترىٰ عليه حيثُ كانوا؟
أخٌ لنا وزاهدٌ والّلهُ مُستعَانُ

رجال الحي:

رأىٰ وقد رأت عُيُو (م) نُنَا أبعد ذا بيانُ؟
هيا لقاضي بصرةٍ وعندهُ البُرهَانُ
نسألُهُ أ زاهدٌ تُحيطهُ القِيَانُ؟

ومـــــزهـــــرٌ ودفٌّ وقـــد خـــلا الـــمـــكـــانُ؟
حـــســـنـــاءُ في جـمـالـهـا كـــأنـــهُ الـــدِّنَـــانُ
شـــرابـــهـــا ولـحـنـهـا وحُـــســـنـــهـــا فـــتَّـــانُ

قاضي الحي:

بـــيـــنـــةٌ عـــلـــىٰ مَـــنْ قـــد ادعـــــىٰ تُـــعَـــانُ
بـــأربـــع شُـــهُـــودٍ لـــهـــم بـــهـــا عِـــيَـــانُ
وهُـــم أُولاءِ أجـمـعـوا وضـــمـــهُـــمْ لـــسَـــانُ
قـــد ثـبـتـتْ جـريـمـةٌ ودرءُهـــــا كُـــفـــرانُ
فـلـتـرجُـمُـوا كـلـيـهـمـا كـمـا قـضـىٰ الـفُـرقَـانُ
وســـنـــةٌ بـيـانُـهُ إن أعـــــوزَ الـبـيـانُ

راوي الزمان: (**الحجارة تُرَد عن ثوبان ورابعة ولا تصيبهما**)

رابـــعـــةٌ ومـثـلـهـا كـــلاهـــمـــا مُـــدانُ
وقـــد أقـــام حـــدَّهُ قـــاضٍ لـــه كـــيَـــانُ
قـــال ارجُـــمـــوا حـجـارةً يُـــرمَـــىٰ بـهـا ثـوبـانُ
ويـرجـمُـونَ والـحِـجَـا رةْ انـتـفَـىٰ لُـقـيَـانُ
مُـــرتـــدةٌ حـــجـــارةٌ يـــردهـــا نُـــكـــصـــانُ
كـــأنـــهـــا مـــأمـــورةٌ تـــصـــونُ مَـــنْ يُـــصَـــانُ
رابـــعـــةٌ وشـيـخـهـا كـــلاهـــمـــا مُـــصَـــانُ

كـــــرامـــــةٌ.. مُـعـجـزةٌ بـــــــــراءةٌ مـحـصـانُ
كـــــرامـــــةٌ ولـيـهـا رابـــــعـــــةٌ ثـــوبـــانُ

قاضي الحي: (**اقتناع وحكم بالبراءة**)

كُـــفَّـــوا يـــداً وعـــودوا يـــا أيـــهـــا الـفـتـيـانُ
رابـــعـــةٌ صـــدِّيـــقَـــةٌ وإنـــهـــا رزانُ
وأنـــتـــم افـتـريـتـمْ أضـلـكُـمْ شـيـطـانُ
بـــل لـهـمـا أعـيـدُوا فـلـلـتـقَـىٰ بُـنـيـانُ

ثوبان: (**شكر لله**)

شُـكـرًا أ يـا رب الـورىٰ فـــإنـــكَ الـرحـمـــنُ

رابعة:

كـــذاكَ فـضـلُ ربـنـا وذلـــــكَ امـتـحـانُ
بـــه اجـتـبـانـا ربـنـا وحـــبـــهُ بُـــرهـــانُ
بـــل ابـتـلانـا وُدَّهُ وودهُ قُـربـــــــانُ
مـــن اتـقـىٰ إلـهـهُ فـهـو بـــه مُـعـانُ

* * *

المشهد الثاني

رحيل.. إلى جبل رابعة

أشخاصه:

(١) عبدة. (٢) رابعة العابدة. (٣) راوي الزمان.

(٤) ملائكة وحور. (٥) آراء حول رابعة.

عبدة:

سيدتِي كفانَا ولنترك المكَانَا
فليسَ فيهِ دارٌ نرىٰ بها الأمانَا
ولنلتمسُ مكانًا لا عينَ قد ترانَا
من بعدِ ما رمانا بالخطءِ من رمانَا
أنبتغيهِ ربعًا مَنْ ظلَّ فيهِ هانَا؟
البعدُ عنهُ أولَىٰ بغيره مثوانَا

رابعة:

شُدي الرحيلَ عبدةٌ وهيئي الأظعانَا
ورحلُنَا مَتاعٌ قليلةٌ كفانَا

بكسرةٍ وكُوبٍ نُروي به ظمانَا
فِي ظل كهفِ حائطٍ نَرىٰ به مكانَا
وخلوةٌ برب تزيدنَا إيمانَا
إنَّا تركنا خلفنا لدينا دُنيانَا
فلنعتصمْ بكهفٍ نبثهُ أشجانَا
حصيرنا ثراهُ وزادُنا دُعانَا
عبادةٌ ونُسْكٌ وربنا مولانَا
ومن يَرُمْ حبيبًا سعَىٰ له ودانَا
يا «عبدتاهُ» كُونِي لمن لنا قد كانَا
الزُّهد فِي حياةٍ نرىٰ بهِ رضانَا
فزهدنا انقطاعٌ لمن لهُ مُسعانَا
هو الكبيرُ لسنا نضيعُ إذ آوانَا
ومُلكُةٌ رحيبٌ به حَوَىٰ الأكوانَا
لبابهِ طرقنَا وعينُهُ ترانَا
ولن يُضيعَ حبًا دعاهُ واستكانَا

راوي الزمان:

وفوقَ سفحِ تَلٍّ تعاقب الأزمانَا
رابعةٌ أقامتْ تُسبحُ الديَّانَا

وعـــــبـــــدةٌ رفـــيـــقٌ لـــهـــا الـــجَـــنَـــابُ لانَـــا
وبـــيـــنـــمـــا أقـــامـــتْ وعـــــبـــــدةٌ زمَـــانَـــا
مـــلائـــكُ الأعـــالِـــي تـــأتـــيـــهـــمـــا مـــكَـــانَـــا

عبدة:

ســـيـــدتِـــي رابـــعَـــةٌ أتَـــىٰ لـــنـــا غَـــدَانَـــا
مـــائـــدةٌ تـــقـــلـــهـــا حُـــورُ تُـــرىٰ حـــسـانَـــا

رابعة:

ألـــم أقُـــل يـــا عـــبـــدةٌ ربُّ الـــسَّـــمَـــا رعـــانَـــا
أظـــلـــنـــا بـــعـــطـــفِـــهِ ولـــم يـــكـــن يـــنـــســـانَـــا
قـــد جـــاءَنَـــا طَـــعَـــامٌ مـــا ضـــرَّنَـــا لـــو كـــانَـــا
أهـــلُ الـــثـــرىٰ عـــلـــيـــنـــا ضـــنُّـــوا قـــســـوا جـــنَـــانَـــا
لـــكـــنـــمـــا حـــبـــيـــبـــي لـــبـــرِّهِ دعَـــانَـــا
زادٌ يـــقـــيـــمُ عُـــودًا مـــن فـــضـــلـــهِ أتَـــانَـــا
وكُـــل مـــا حـــواهُ مـــا أخـــلـــفَ الأوانَـــا
في كُـــلِّ حـــيـــنِ أُكْـــلُـــه أغـــنـــىٰ ومـــا أقـــنـــانَـــا

ملائكة وحور:

مـــلائـــكـــةُ وحـــورٌ
يـــا رابـــعـــةُ الأمـــانَـــا قـــرِّي هُـــنـــا مـــكـــانَـــا

وسبحي إلهاً عشقتهِ حنانَا
وزدتِ منهُ قُرْباً أرسلنا بيانَا
بما حوتْ يدانَا وفضلُهُ استبانَا
ماءٌ وذَا طعامٌ وأنعمٌ ألوانَا
كُلي الطعامَ واشربي وسبِّحِي لسانَا
هذا مكانٌ طَيِّبٌ به غَدَا لِقَانَا
ناجىٰ الحبيبُ حِبَّهُ وضمَّهُ احتضانَا

راوي الزمان:

وذاعَ ذكر رابعةٌ علىٰ الربُوعِ الشاسعةْ
زاهدةٌ تنسكتْ لها السماءُ سامعَةْ
بربها تولَّهَتْ سعت إليهِ ضارعَةْ
فخصَّها بفضلهِ وقد أتته طائعَةْ
يا قومها استفيقُوا رابعةٌ كجامعَةْ
وعلمُهَا بربها له القلوبُ خاشعةْ
من مثلها بدهرها زاهدةٌ وقابعَةْ؟
محرابُ عشقها الهَوَىٰ فيهِ تُقيمُ قابعَةْ
مذهبها تبتُّلٌ أصغَىٰ لها مسامعَهْ
ورقةٌ بملْبَسٍ ومأكلٍ لشابعَهْ

ومـــــن يـــــرُمْ طـريـقـهـا فـلـلـهُـدىٰ مُـســارعَــةْ
وتـــلـــك قـــصـــةٌ لـهـا لـكـل ذي مـتـابـعَـةْ
لـــعـــلـــهـــا بـقـصـدهـا وفَّـــتْ فُـــصُـــولَ واقـعَـةْ

* * *

المشهد الثالث

رابعة تشاركُ في النضالِ بالكلمةِ المتصوفة

أشخاصه:

(١) سائل. (٢) آراء تقول. (٣) رأي المريد.

(٤) رابعة. (٥) راوي الزمان. (٦) رسول هارون الرشيد.

(٧) الخليفة هارون الرشيد.

(٨) ملائك وحور في مشهد وداع رابعة.

سائل:

مُـنـذُ التقيتُ بها ونفسي تطمعُ إن الـــزهـــادةَ عـــالـــمٌ مُـتـطـلـعُ

فـيـه تُـــردُّ الـنـفـسُ عـن شهواتها «وإذا تُـــردُّ إلـىٰ قـلـيـلٍ تـقـنـعُ»

يـصـبـو لـهـا مُـتـطـلـعٌ لـصـفـائِـهِ ولكم يُـجـابُ لسؤلهِ المُتطلعُ؟

فـهـل التطلع لـلـصـفـاءِ تـصـوُّفٌ أم فـيـه للنفس الـزكـيـةِ مهيعُ؟

أم نفسُ مـن يبغيهِ تخلعُ لهوها وإلـىٰ الحقيقةِ كم نفوسٍ تنزعُ؟

مـاذا وراءَ الـغـيـبِ مـن صـورٍ لهُ إن كـــانَ يـهـواهُ الـــذي يتطلعُ؟

رأي يقول:

رأيٌ يـقـول بـأنَّـهَـا إطـلالَـةٌ نحوَ السمو لهُ المُكاشِفُ مُهْطِعُ

يـأوي لصومعةٍ التنسكِ والتقَىٰ وعـلـىٰ الـكـتـابِ وسُـنّـةٍ مُتتبعُ
ويـظـلُّ يـعـبـدُ ربـهُ فِـي خـلـوةٍ دُونَ الأنَـــامِ لـهُ بـهـا مُـتـربَّـعُ
يقضِي الـنـهـارَ بها ويـأتِـي بعدهُ غـبـشُ الـظـلام بـهِ يـطُـولُ المقبَعُ
يـتـلُـو كـتـاب الله فِـي خـلـواتِـهِ ودُعـــاؤُهُ ذكـــرٌ وفـهـمٌ أوسـعُ
وتـنـسـكٌ الـراجِـيَ مـثـوبـة ربـهِ صـومٌ ضـيـاءُ النفس مـنـهُ يسطعُ
وعـبـادةٌ للهِ تـخـلُـصُ دُونَـــهُ ومـراتـبٌ فـيـهـا الـمـريـدُ يُـطـوّعُ
وتفكرُ فِـي الـكـونِ فـي ملكوتِهِ فِي صُـنـع رب.. فـيـهِ سـرٌّ مُـودَعُ
وحـقـيـقـةٌ يـسـعـىٰ لـهـا مُـتـطـلـعٌ هـو ذَا الـتـصـوفُ للكمالِ تُـتَـبّـعُ

رأي آخر:

ويـقـولُ رأي آخـر هـو نـزعَـةٌ نـحـوَ الـصـفـاءِ لـهُ نـفـوسُ طُـلَّـعُ
فـي كل أديـان السماءِ لـهُ صدًىٰ فـي شكل مـا نفسٌ تـرومُ وتقنَعُ
وبـغـيـرِ أديـانِ الـسـمـاءِ يُـرىٰ لـهُ نسقٌ بـهِ يُغشىٰ الـصـفـاءُ ويخلعُ
زُهـدٌ بـلـذاتِ الـحـيـاةِ ولـهـوهـا كـم مـن حكيمٍ بالتصوفِ يُـولـعُ
«مانِي» و «كونفشيوسُ» ثم براهما وبـهـم جـهـادُ النفس ثَـمَّ المنبعُ
فِي كـل أرضٍ راهـــبٌ أو عـابـدٌ أو كـاهـنٌ أو زاهـــدُ متضلعُ
جعل التصوفَ والتنسكَ شرعةً ولـهـا أصـولٌ لا تُـقـاسُ وتُـصّـنَـعُ
فيها يـكـونُ الـزُّهـدُ مـن مُتصوفٍ فِي الهندِ فِي اليونانِ فُـرْسٍ شرَّعُوا

رأي ثالث:

وهنالكَ المتحنفُونَ قُبيلَ ما ... أهلُ الجزيرةِ جاءهم من يجمعُ
الصابئونَ من التصوفِ أيقنوا ... أن الحياة لها كيانٌ أوسعُ
ليستْ طعامًا يُشتهىٰ أو شهوةً ... لِيَعُبَّ منها من يشاءُ ويرضعُ
بل إنَّ زاد الروحِ أشهىٰ موقعًا ... حيثُ التصوفُ والزهادةُ مَشْرَعُ

رأي رابع:

وتصوفُ الإسلامِ نبعٌ خالصٌ ... فيهِ الكتابُ وسُنةٌ هي مرجعُ
ذكرٌ وإخلاصٌ وطاعةُ خالقٍ ... وتطلع للحُبِّ ثم تضرّعُ
وشعورُ نفسٍ بارتكابِ مآثمٍ ... من حيثُ لا تدري إذا هي تجزعُ

رأي الغزالي:

قال الغزالي: فيه قولاً رائعًا ... منه جهادُ النفس عما تطمعُ
وبريقُ نورٍ فيه تزكيةُ النُّهَىٰ ... والنفسُ عما تستميحُ وتوقعُ
سعيًا لمعرفةِ الإلهِ وحُبِّهِ ... يعلو المقامُ بها ويسمو الموقعُ
ولكل دينٍ من فلاسفةٍ رأوا ... أنَّ التصوفَ للفضائلِ منبعُ
من أجلِ ذا قال الحكيمُ بشعرهِ ... «والنفس راغبةٌ» فأنَّىٰ تُقلعُ؟
هي حيثما تربىٰ عليه وتلتقِي ... «وإذا تُرد إلىٰ قليل تقنعُ»
يقسي عليها بالزهادةِ في الذي ... تهواهُ من مُتعِ الحياة وتُردعُ

شأن ابن سينا:

شأن ابن سينا أو «أبي الخير» ابتغَىٰ ... و«أبـي عـلـيّ» أو سـعـيـدٍ يُـوزعُ
قالوا: الذي قالوا: وجلّ حديثهم ... أن الـتـصـوف مـنـهـجٌ مـتـنـوعُ
تطهيرُ نـفـسٍ بـالـجـهـادِ وكبحها ... عـن أن تـمـيـل لـلـذة لا تـنـفـعُ
والنفعُ في ذات الفضيلةِ لا الخنا ... أيـنَ اسـتـقـرَّ لـزاهـدٍ متطلعُ

رأي المريد:

وأنـا أرىٰ في الزهد مغدىٰ حكمةٍ ... ليـس الـتـصـوفُ في خـلاءِ تقبعُ
لـكـن مـشـاركـةً لـنـفـع بـريَّـةٍ ... لا الانـعـزالَ بـه لـوقـتـكَ تقطعُ
في مَـدِّ كـفِّ الـعـون لـلـباغي لهُ ... وقـضـاءُ حـاجـتـهِ فـذلـكَ أنـجـعُ
في مـثـلِ رابـعـةٍ مـثـالُ تـصـوُّفٍ ... منـه الـجـهـادُ لـشـرِ خـصـمٍ يـدفـعُ
قـد جـاءهـا هربًا رجـالٌ هـرولُـوا ... مـن غـزوِ رُومٍ قـد عـراهـم مجزعُ
فـرَّوا بـرابـعـةٍ يُـلاذُ بـركـنـهـا ... وإلىٰ الدعاءِ سعوا لها وتضرعُوا

أصوات فارين:

يـا أُخـت ثـوبـانٍ أتـتـكِ جُمُوعنَا ... خـوفَ الأعـادِي والـمـنـايـا نُـزَّعُ
دخلوا الحدودَ وهرولوا بحشُودهم ... وبـكـل ألـوانِ الـرذيـلـةِ أوضـعُـوا
لـم نـلـقَ مـن وَزَرٍ سـواكَ لأمْـنِـنَـا ... ولـحـفـظِ أبـنـاءٍ فحصنكِ أمنعُ
جـبـلٌ لـرابـعـةٍ تـسـامي لـلـذرَىٰ ... منـه لأسـبـابِ الـتـحـصـن مـدرعُ
هـل تسمحين لـنـا بـقـاءً هاهنا ... بـجـوارِ مـحـرابٍ بـهِ مُـتـمـنـعُ؟

رابعة: (المناضلة)

لا يا ذوي دينٍ يحثُّ علىٰ الفِدَىٰ ... خَـوْفَ الأعـادي لا هـروبٌ ينفعُ
فلترجعوا ولتدفعوا عن أرضكم ... لا تهربوا هرب الثعالبِ وارجعُوا
عـودوا لساحاتِ القتالِ وناضلُوا ... بـأسَ الـعـدوِّ: ومـنـهُ لا تتفزعُوا
الحربُ من أجلِ العقيدةِ والحِمَىٰ ... شـــرفٌ وإيـــمـــانٌ وعِـــزٌّ أرفـــعُ
ذودوا العدو عن الديارِ أو ادفعُوا ... ما خـابَ مَـنْ عن أرضـهِ يستدفعُ
هـيـا لـمـيـدانِ الـجـهـادِ وإنـنـي ... لصفوفهِ الأولـىٰ دعـانِي مَـهْـرَعُ
السيفُ في اليد والعقيدةُ في دمِي ... مجرىٰ الـعـروقِ مع النجيع تدفّعُ
أمـــنُ الـبـلادِ فـريـضـةٌ مـشـروعـةٌ ... فيها الجهادُ عن الحرائرِ مَـدْفَـعُ
فلتذهبوا لـقـتـالِ خَـصْـمٍ فـاجـرٍ ... يبغِي تـرابَ الأرضِ فلتطوَّعُوا
هُـبّـوا لإنـقـاذِ الـبـلادِ مـن العدىٰ ... لا خـيـرَ فيمن عـن حـمـاهُ يخنعُ
هُـبـوا كـآسـادِ الـشـرىٰ عـن غيلها ... أو في الـمـواقـع دوحـهـا يتقلعُ
هُـبـوا كهبةِ واحـدٍ خـاضَ الوغَىٰ ... كَـلُـيُـوثِ غـابٍ في الـعـريـنِ تفزعُ
حُوزوا رضا الرحمنِ في صونِ الحمَىٰ ... فالنصرُ للحاميةِ لا مـن يجزعُ

راوي الزمان:

ومضىٰ الجميعُ إلىٰ الجهادِ فريضةً ... وجبَ الأداءُ لها: العدو يُضعضعُ
نفروا لميدانِ الشهادةِ في الوغَىٰ ... كُتبَ البقاءُ لهم: وطابَ المصرعُ
في عهدِ هـارونِ الرشيدِ وجنـدِهِ ... جُـنـدُ الـفـداءِ لـه ابتغىٰ المتطلعُ

هَـذِي هـي الصوفيةُ المعني بها ... أن الـجـهـادَ دمٌ: ومـنـهُ الأدمُـعُ
دمـعُ الـفـداءِ دمٌ يُـراقُ علىٰ الثَّرىٰ ... تـحـيـا بـه أُمـــمٌ تـضـر وتـنـفـعُ
قـــولِ رابـــعـــةٍ أرىٰ عـنـوانـهُ ... وبمثلِهِ يُوصَىٰ الشبابُ ويُـوزَعُ

رسول هارون الرشيد:

حُـيـيـتِ رابـعـةٌ بـمـا قـد قُـلـتـهِ ... وبـمـا فعلتِ لـكِ الـمـنارُ الأرفـعُ
مـن عندِ هـارونِ الـرشـيدِ رسالةٌ ... فـيـهـا وســامٌ لـلـتـصـوفِ أنـصـعُ
قـد كـنـتِ نافخةً ببـوقِ جهادهم ... رجـعـوا بـنـصـرٍ فـيـهِ ذكـرٌ يتبعُ
فإليك مـا بعثَ الخليفةُ مانحًا ... تـلـكَ الـهـدايـا والـبـقـيـةُ تـتـبـعُ
ذهــبٌ دقـيـقٌ تـمـرُ نـخـلٍ فضةٌ ... وثـيـابُ خَـزٍّ مـن وراءٍ تُـبـعُ
حملت جِـمَـالٌ أوقـرتْ بحمولها ... تمشي الهوينىٰ كالتي هي تظلعُ
أفـلا انتفعتِ بها بمسغبةٍ تُـرَىٰ ... أو قـد تـحـلُّ لـعـلـهـا تـتـوقـعُ
مـن أجـلِ رابـعـةٍ جـزاءَ جهادها ... عـيـنٌ الـجـهـادِ وثـمَّ عـيـنٌ تـدمَـعُ
دمـعـتْ مخافة ربـهـا وتـطـوَّعَـتْ ... تحميَ وتـحـرسُ دُونـهـا أو تدفعُ
فعلُ التصوفِ في النفوسِ إذا صَفَتْ ... وبـهـا الـتـصـوفُ خُـلـةٌ لا تُقشعُ
حملتْ قـلادةَ سيفها لا حَلْيها ... وبـهـا زكـتْ نـارُ الـجـهـادِ تُـولَّـعُ

رابعة: (الزاهدة)

ارجـع لـهـارونَ الـرشـيـدَ وقُـل لهُ ... تـلـكَ الـهـدايـا لـلـفـقـيـرِ تُـــوزَّعُ
أعففْ بها المُحتاجَ قبل سُؤالهِ ... وقِـهِ الـمـذلـة: كـم أُذلَّـتْ جُـوَّعُ؟

واسترْ بها عوراتِ ذاتِ كريمةٍ ... في خدرها قَبَعَتْ ومِنّا أَجْيَّعُ
أَمَّا أنا فلدي ما أهداهُ لي ... كرمُ الحبيبِ ومن إليهِ المرجعُ
هو كافلي وأنا المنوطةُ بالفِدَىٰ ... من عينِ خاشعةٍ تفيضُ الأدمُعُ
الأرضُ للهِ الذي خلقَ الوَرَىٰ ... لا للخليفةِ وحدهُ.. تتشيّعُ
ربي وقاني أن أمُدْ يدًا لمن ... هو صاحبُ الدنيا بما يُتبرَّعُ
إني نفضتُ يديَّ من دنيا الهوىٰ ... مالي بها أربٌ ولا لي منفعُ
طلقتها منذ اتجهتُ لبابهِ ... ولزمتُ محرابي له أتضرَّعُ
هو رازقِي هو ساتري هو ملجأي ... هو غايتي هو واهبي ما يُقْنِعُ
أخلصتُ حبي فيهِ وهو مثابتِي ... وإذا سِغِبْتُ فبالتصوفِ أشبعُ
أشبعتُ بطنَ الخيرِ لا بطن الطَوَىٰ ... والجُوُع إن من المجاعةِ تشبعُ
هو للنفوسِ غِنًىٰ وخالدُ ثروةٍ ... وإذا لجأتُ إلىٰ سواهُ سأمنعُ
هو مانحي ما منهُ رُوحِي أُشبعتْ ... أفلا أصومُ عن السؤالِ وأقنعُ؟
«والنفسُ راغبةٌ إذا رَغَبتْهَا» ... وإذا أُطيلَ زمامُهَا لا تشبعُ
وتعُودِ للتقوىٰ فتُمسِكُ حبلها ... وإذا تُرد إلىٰ سواها تقطعُ

راوي الزمان:

ويعودُ مبعوثُ الخليفةِ بالذِي ... بعثَ الخليفةُ وهوَ - رَدٌّ مُقنعُ
ألقته رابعةٌ نصيحةَ واعظٍ ... فِي نصحِهِ نُورٌ وهدًىٰ أنفعُ
معهُ رسالتها وما رُقِمَتْ بهِ ... من رُوحِ زاهدةٍ وما تتمتعُ

الخليفة هارون الرشيد:

الـحـق مـا قـالـتـهُ رابـعـةٌ لنا ... وهـو الدليلُ لـه الضياءُ الأسطعُ
مـن يـزهـدِ الـدنـيـا فليسِ بحاجةٍ ... لـمـتـاعِ زائـلـةٍ ولا هـو يـطـمـعُ
إنِّـــي إلـيـهـا ذاهـــبٌ بـمـعـيـتِي ... مـن غـيـرَ مـا جُـنـدٍ بـهـا أتـلـفّـعُ
ولـبـيـتِ رابـعـةٍ أُسـيِّـرُ نـاقـتِي ... وبـقـربِ رابـعـةٍ عـسـايَ أُشـفَّـعُ
وَعَـظَـتْ فأبلغتِ المقالَ بمُوجزٍ ... «من طلَّقَ الدُنيا فما هو يَرْجِعُ»؟
ارجـع لـربـكَ حـامـلاً زادَ التُّقَىٰ ... وأنـا الـحـفـيُّ بما تـقـولُ وأسـمـعُ

راوي الزمان:

ويـسـيـرُ هـــارون الـرشـيـدُ بنفسهِ ... لـيـزورَ رابـعـةً ويَـغـشَـىٰ الموضعُ
جـبـلُ لـرابـعـةٍ وكـهـفٌ دُونَـــهُ ... مـا فِـي الـوجـودِ جميعُهُ يتجمَّعُ
فـيـهِ الـقـنـاعـةُ والـتـقَـي وتـصـوُّفٌ ... وتـخـشـعٌ للهِ وهـــو الـمَـفْـزَعُ
وإذا بـــأنـــوارٍ تُـخـالـطُ نـفـسَـهُ ... ومـلائـكٌ تـرنُـو وأُخـــرىٰ تسمعُ
فِي بـيـتِ رابـعـةٍ بـكـهـفٍ شـامـخٍ ... يُـفـضِـي إلـيـهِ طـريـقُ سير يـرفـعُ
نـــاديَ أ سـيـدةَ الـنـسـاءِ تصوُّفًا ... مـنِّـي ســلامُ اللهِ جـــاءكَ يَـهْـرَعُ
أفـضِـي إلـيَّ مـن الـسـتـارِ فإنني ... مُتلمسٌ بـركـاتِ مـن هـي أورَعُ
ورعٌ وتـقـوىٰ والـتـزامُ شـريـعةٍ ... وجـهـادُ نـفـسٍ بـاركـتـهُ الأضـلُـعُ
بـــرزتْ تُـقـابـلُ مـنـه رابـعـةٌ أخـا ... مـا للخلافةِ مـن مـجـالٍ مَـوْضِـعُ

هارون الرشيد:

بـــاللهِ رابـعـــةٌ لـي ادعـــي دعـــوةً عـنـدَ الـمُـحـبِّ فـلي إلـيـه تطلُّعُ
علمتني كـيـفَ الـخـضـوعُ لـذاتـهِ ومـتـىٰ يُـــراحُ لـــهُ وأنَّـــىٰ يُـقـلـعُ
أنـتِ الـتـي حظيتْ لـديـهِ بحبها ولـهـا بـعـلـيـيـن ركـــنٌ أوســـعُ

رابعة:

أيـــدتَ مـلـكـًا والـخـلافـةُ بيعةٌ قـد بـايـعـتـكِ بـهـا الـسـمـاءُ تُـوقـعُ
شـهـدتُ بـأنَّـكَ عـادلٌ في أرضها مـيـزانُ عـدلـكَ في الـبـريـةِ يُـوضـعُ
مـيـزانُ تـقـوىٰ ثـم عـــدلٌ يُبتغَىٰ بعد الـرشـيـد ولـيـسَ عنه يُسمعُ
إن السحابةَ طـاوعـتـكَ وأقبلتْ لك سيبها يهمي وطـرفُـكَ يدمعُ
شـكـرًا لـربـي أنـــتَ لـي ذللتها وجعلتها بجزيلِ فضلكَ تُوضعُ
أو لـم تـقـل هـــذا غـــداة رأيـتـهـا وغـداة «نِيقفورٌ» دهـاه المصرعُ؟
في السلم في الحربِ التزمتُ بحقها وأطـعـتَ ربـكَ مـا كبا بـكَ مظلعُ

هارون الرشيد:

أو أنـــتِ راضـيـــةٌ عـلَّـي خليفةً وَشَـهِـدْتِ أني عـادل لا أبـخـعُ؟
الـمـلـك أعـطـانـيـهِ ربِّـــي إنـمـا مـنـهُ عـلـيَّ رقـيـبـهُ الـمُـتـطـلـعُ
يـرنُـو إلـيَّ مـن الـسـمـاءِ لأرضِـهِ أيَّـانَ أمضي أو حوانِي المضجعُ؟

لـكـنْ خـلافـتـكَ الـتـي أُوتـيـتـهـا بـيـن الـبـريـةِ إذ سُـجـودُ رُكـعُ
يـدعـونَ ربّ الخلقِ في خلواتهمْ كـانـوا قـلـيـلاً إذ جـفـونٌ تهجعُ
في بيتكِ المحرابُ يُرفعُ مُسجدًا يـا دارَ رابـعـةٍ حـمـامُـكُ وقَّـعُ
صُـوفـيـةٌ عـدويـةٌ عـربـيـةٌ وبـديـنِ إسـلامٍ تـديـنُ وتـخـشـعُ

رابعة:

كَفَني جواري حيثُ قُمتُ ملازمِي والجسمُ أضناهُ الـهُـزَالُ سأُزمِعُ
إنَّ الـثـمـانـيـنَ الـتـي بُـلـغـتـهـا كتبت نـهـايـة مـا أقـولُ وأسـمـعُ
بل إنها حفرتُ بكهفي مَلْحَدِي مـاذا أرومُ وبـعـد ذلـك أصـنـعُ؟
رُوحـي تتوقُ إلىٰ مكانِ خُلودها مـن سـدرةٍ لـلـمـنـتـهَىٰ تـتـطـلـعُ
واليوم إذ كُشفَ الحجابُ وأبصرت عـيـنـايَ مـا بلغتَ وفلكي تُقلعُ
مـن شـاطـئ الـدنـيـا وآخـر قـطـرةٍ مـن نبعِ عُمر منه شمسٌ تضرعُ
وإلـىٰ شـواطـئ عـالـم أبـصـرتُـهُ وبـهِ بُـهـرتُ وفـيـهِ شـوقِـي مُـمْـرِعُ
وأرىٰ الملائكَ في مواكبِ جمَّةٍ مـنـهـم هُـبـوطُ قـادمـونَ وطُـلـعُ
شـوقـي إلـىٰ رُؤيـا الـذي أحببته أو رُمـتُ رُؤيـتـه إلـيـه أنـزعُ
لُـفَّـوا بها جسدي ملابسُ توبتي مُـذ كـانَ ثـوبـانُ ابتغي مـا أصنعُ
قـد قـال لـي جسد الـرذيـلـة ذابـلٌ من روضـهِ طـارَ الحمامُ أيرجعُ؟

بل إنهُ عاريةٌ مردودةٌ ولمن حباها المُنتهىٰ والمرجعُ
جسدُ الرذيلة لا الفضيلة زائلٌ عن أرضِ عالمهِ الذي يتمزعُ
قد قيلَ لي جسدُ الطهارةِ لا الخَنَا روضُ الفضيلةِ فيهِ غضٌّ مُونِعُ
أما الرذيلةُ فهي جسمٌ زائلٌ إن الجمالَ لصفحتيهِ البُرقعُ
والآنُ ألقي نظرتينِ لخلوتِي بيتُ المتابِ إلىٰ حبيبي أرفَعُ
بنتُ (الأُبلةِ) وهيَ رابعةٌ تُرَىٰ هذي نهايتها الغداة تُودّعُ

راوي الزمان:

ويُودعِ النعشُ الطهور للحدِهِ وعليهِ تبكي أعينَ لا تهجعُ
ومع الرشيد بقيةُ صوفيةٌ ومن الحمائمِ صامتاتٌ سُجَّعُ
ومواكب لملائِكِ تحدُو لها أو هكذا الصوفي حينَ يُشيَّعُ؟
حَفَتْ برابعةٍ وفودٌ جنازةٍ موجُ البحارِ شبيهُها إذ يتبعُ
أغفت عيونٌ طالما شَكَت الجَوَىٰ ولها إلىٰ لُقيا الحبيبِ تَطلُّعُ
أفضت إلىٰ النزعِ الأخيرِ حياتُهَا في شهقةٍ لمَّتْ سناها الأضلُعُ
أودعتُ ماضيها بذاكرتي تُرَىٰ عبرَ الزمانِ لها الصحائفُ نُصَّعُ
كُتبتْ بدمع الطهر في صفحاتها بسطورِ نُورٍ بالخواطرِ تُلمعُ

* * *

ملائكةٌ وحُور

في مشهد درامي حول نعش رابعة

مـــــلائِـــــكٌ وحُـــــــورْ بـــهـــا الـــفـــضَـــا يَـــــدُورْ
مـــــواكـــــبٌ حـــضـــورْ لـــنـــعـــشِـــهَـــا تَـــــزُورْ
مـــــلائِـــــكٌ وحُـــــــورْ
تـــــرانِـــــمُ الأمـــــلاكْ ربَّـــــــاهُ فِـــــي عُـــــلاكْ
رابـــــعـــــةٌ تَـــــرَاكْ وحـــولَـــهَـــا الأفْـــــلاكْ
مـــــلائِـــــكٌ وحُـــــــورْ
نُـــــورٌ بـــــهِ الأرْوَاحْ عَـــــرائِـــــسٌ صِـــبَـــاحْ
وفِـــــتْـــــيَـــــةٌ مِـــــلاحْ وعَـــــاصِـــــفُ الـــرِّيَـــاحْ
مـــــلائِـــــكٌ وحُـــــــورْ
عُـــــودي إلـــــىٰ حِـــمَـــاهْ وشـــــاهـــــدِي سَـــنَـــاهْ
وأنـــــتِ فِـــــي رضَـــــاهْ يـــا دُرَّةَ الـــحَـــيَـــاةْ
مـــــلائِـــــكٌ وحُـــــــورْ
عـــلـــىٰ مَـــــدَىٰ الـــدُّهُـــورْ

* * *

الفصل الرابع

البيئة التي أنـجبت رابعة

المشهد الأول

البيئة التي أنجبت رابعة

متصوفون - ومتصوفات - غير رابعة العدوية

أشخاصه:

(١) ذو النون المصري.

(٢) رابعة الشامية ابنة إسماعيل وزوجة أحمد بن أبي الحواري.

(٣) أبو السوار العدوي.

(٤) معاذة ابنة عبد الله العدوي (عابدة متصوفة).

(٥) وصلة بن أشيم العدوي (زوج مجاهد في سبيل الله).

(٦) حميد بن هلال العدوي.

(٧) حبيبة العدوية (عابدة متصوفة).

(٨) أمة الجليل بنت عمرو العدوية (عابدة من بني عدي).

(٩) حماد بن زيد العدوي.

سائل:

قـالـوا لـرابـعـةٍ نـظـيـراتٌ لها مُـتـصـوفـاتٌ قـلـتُ أَنَّـىٰ مثلُهَا؟

الراوي:

إن التي هي من عديّ قبلها ... هي ذي مُعاذةُ الصفاءُ محلُّهَا
عاشت تجاورُ ربها في خلوةٍ ... وترىٰ معيتهُ لها مدلولها
هي أن تعيش له وليسَ لغيرهِ ... وتظلّ تعبدهُ شهيدًا نجلُهَا
ولزوجها الصبهاءِ أو صلةٍ روىٰ ... عنه الحواريُّ الشهادةَ بعلُهَا
في غزوةٍ قُتلا ونيل كلاهُمَا ... في الحربِ دُونهما الحكايةُ أصلها
قد قال حمَّادُ بنْ زيدٍ راويًا ... عن عامرٍ وهشامٍ انتسبا لها
قد قاتلا خيلاً فداءً دُونَهُ ... ضُرَب المثالُ عساهُ قَلَّ مثالُهَا
رجُلانِ من عربِ العراقِ بسالةً ... يطآنِ خيلاً قدْ عَتيَ أبطالُهَا
شممٌ دراهُ بنُو عديٍّ في الفِدَىٰ ... ومُعاذَةٍ في الصبرِ طابَ نضالُهَا
يحكي الزمانُ وللزمانِ درايةٌ ... بنضالِ صُوفييهِ هُم صُوَّالُهَا
أودىٰ أبو الصبهاءِ مع نجلٍ لهُ ... ومُعاذةٌ أُمَّ تسامَىٰ فضلُهَا
جاءَ النساءُ لها يُردنَ عزاءَهَا ... أفضَىٰ إليهنَّ الجوابَ مقالُهَا

معاذة:

إن كان قد جئتنَّ تبغينَ العزا ... فارجعنَ تلكَ مقالةٌ سأملُّهَا
أمَّا إذا رُمتنَّ تهنئةً فلِي ... منها السرورُ وإن ذا لأقلهَا
إنِّي رأيتُ أبا لصبهاءَ التقَي ... بي في المنامِ تحيةً سأُجلهَا

مـاذا يـصيـرُ الـمـرءُ عـنـد شـهـادةٍ ... في الـذودِ عن وطـنٍ يُـرفـرفُ ظلهَا
في صحنِ داري قدْ سعَىٰ لي مُقبلاً ... وعـلـيـه مـن حُـلـلِ تـرف طـلالُـهَـا
قـالـتْ مُـعـاذةُ مـا رأتْ في حلمها ... شهدت أبا الصبهاءِ وهـو يُجلُّهَا
أحـسـنـتِ في مـقـالـةٍ قـد قُـلْـتِـهَـا ... مـا كـان أعـظـمـهـا لـو أَجَـلَّـهَـا
إنَّ الـتـصـوفَ رحـلـةٌ عُـلـويـةٌ ... سَـبـحـاتُ نُـورٍ لـلـنـفـوسِ تُقلها
هـذي مُـعـاذة الـنـقـاءُ سـمـا بها ... مـن طُـهـرِ عـابـدةٍ الـسـمـاءِ تُظلهَا
من حولها تغدُو الملائكُ روَّحًا ... يـفـدونَ لـلـنـفـسِ الـنـقـيـةِ ظـلُّـهَـا
جـنَّـاتُ خُـلـدٍ عـالـمٌ مُـتـأرجٌ ... كـحـدائـقِ الـدنـيـا عليها طـلُّـهَـا
يـا أيـهـا الـرانـي لـجـنـةِ خُـلْـدِهَـا ... هـي جـنـةُ الـصـوفيِّ حيثُ يحلُّهَا
ومُـعـاذةٌ صبرت علىٰ بـلـوىٰ لها ... ورأت غُصونَ الحُبِّ كيفَ تملها؟
كُـن عابدًا كُـن زاهـدًا كُـن سائحًا ... كُـن واثـقًـا نـفـسُ الـتـقـاةِ مطلُّهَا
أمـسـتْ بـعـلـيـيـن تـلـقـىٰ ربـهـا ... قبل الصلاةِ لـدىٰ الفريضةِ نفلها

السائل:

قـالـوا لـرابـعـةٍ بـمـصـر مقامها ... عـدويـةٌ هـي أم حـواهـا شـامُـهَـا؟
هي لابن مصرَ هناك ذي النون التقت ... مـن فـوقِ مـاءِ النيلِ وهـو إمامُهَا
أم أنـهـا أُخـرىٰ غـدت أُخـتـًا لها ... في عهدها أم قـد تـلا إسهامُهَا؟

الراوي:

ذاكَ الكلامُ حقيقةٌ لا ريبَ في هذا لبنتِ الشامِ زادَ هُيامُهَا
وتصوفتْ والصوفُ كانَ لباسها ولباسُ تقوىٰ وهو منهُ وسامُهَا
هي بنتُ إسماعيل أحمدُ زوجها يروي لنا «السُّلَميّ» ما هو جَامُهَا
هي ثَمَّ رابعةٌ تسمَّتْ باسمها أو شاركتْ فيهِ كحامٍ سامُهَا
حظيتْ بركنٍ في التصوفِ مثلها أو قيلَ رابعةٌ غدا تهيامها
ولعلها اتخذت طريقة من غدت «لبني عَدِي» واستقر لزامُهَا
بل إنها اتخذتْ لعزفٍ حرفَةً أو قاربًا في النيلِ حيثُ مُسامُهَا
لِمَ لا يكونُ لها كنفسِ طريقها في نيلِ لُقمتها لها استخدامُهَا؟
والفرق بينهما لرابعةٍ غدَا زوجٌ يقاسمها الهوىٰ قسامُهَا
ولكل ذي ورعٍ مكانة قربها تبعًا لزوجتهِ يُرامُ قيامُهَا
كمُعاذةٍ ببني عدي قبلها في خُطةٍ فيها يشدُ عصامُهَا
من قالَ إن الزاهدين تنسكُوا هي غيرُ ما كان الزواجُ يُسامُهَا
في حالةِ الجذبِ ارتقىٰ صُوفيهَا نَسِيَ القرينَ وأسرة يعتامُهَا
شُغلتْ جوارحُهُ بِحُب إلهِهِ وسمتَ عن الأهواءِ ليس تُضَامُهَا
فرأتْ «لذي النونِ» المُكاشِفِ ربهُ يُفضي إليه رُؤًىٰ لديهِ غُلامُهَا
أَوَ ما قُلوبُ العارفينَ تَرىٰ الذِي خلفَ الغُيوب إذا يُرىٰ عَلَّامُهَا
في قاربٍ لقي ابنُ أخميمَ لها يُدعىٰ بذي النونِ ابتغتهُ سهامُهَا

قـد شـامـهـا مـن بـيـن ثـلـة فتية ... ركـبـوا لـزورقـهـا وهـم خُـدَّامُـهَـا
نـفـثـت بـنـايٍ هـمـهـا وشـعـورهـا ... والـراحُ مـن خمر أُمـيـطَ حرامُهَا
خـمـرٌ مُـعـتـقـةٌ بـذكـرِ إلـهـهـا ... لا تلك ذي الجاسي لها «بَهْرَامُهَا»
خمر الصفاء ونشوةُ الساقي بها ... يُـشـفـي مُـريـديـهِ وهـم قـوامُـهَـا
وغـدت بـقـرنٍ ثـالـث ولـسـابـقٍ ... مـن بـعـدِ رابـعـةٍ أُقـيـمَ مـقـامُـهَـا
ولـكـلِّ رابـعـةٍ بـأرضٍ مُـنـتـمًـىٰ ... تُـعـزىٰ إلـيـه لـبـدءِ تـلـكَ ختامُهَا
مُـتـصـوفـاتٌ نـاسـكـاتٌ دونـهـا ... كُشفَ الحجابُ لها به استلهامُهَا
تصفوا القُلوبُ وتجتلي ما دُونها ... فُـتـحـتَ خـزائـنـهُ وفـض لـثـامُـهَـا
هـي تـلـكَ رابـعـةٌ ورابـعـةٌ معًا ... ولـكـلٌ نـاسـكـةٍ هـوًىٰ وإمـامُـهَـا
ذو الـنـونِ رابـعـةٌ رآهـا وارتـأت ... حـالاتِ جـذبٍ مـا بها أوهـامُـهَـا
هـي لـلـحـقـيـقـةِ مـظـهـرٌ وبـقـيـةٌ ... من ذاتِ نفسٍ قـدْ زكـىٰ تهيامُهَا
يـا مـن تُـسـائـلـنِي أ أنـت عرفتها ... وسقتكَ مِنْ كأسِ الهُيامِ مُدامُهَا؟
في حُـبِّ رابـعـةٍ لـذاتِ إلهها ... نـهـجٌ قـويـمٌ مـنـهُ كـان قـوامُـهَـا
أرواحُ صـدِّيـقـيـنَ في ملكوتها ... تصفو بها رُوحـي ويُمحىٰ ذامُهَا
ربـاهُ هـب لـي نـفـحـةً رُوحـيـةً ... شرعتْ تهيمُ أما يطيبُ هُيامُهَا؟

السائل:

وأنـا كمثلكَ لـو دعـوتَ بنفحةٍ ... لا تنسني نفسي الصفاءُ طعامُهَا
ولـكُـلِّ آكـلـةٍ طـعـامٌ يُشتهىٰ ... ولـهـا مـع الـخُـبـزِ الـمـرومِ إدامُـهَـا

الراوي: (يتحدث عن حبيبة)

وحـبـيـبـةٌ عـــدويـــةٌ بـتـصـوُّفٍ بلغت مكانتها بفضلِ تشوُّفِ
هـي تـلـك زاهـــدةٌ غـدتْ عـدويـةً في رُكـنِ خلوتها مـزيـدُ تَـحَـنُّـفِ
عشقتْ كـرابـعـةٍ أتـت مـن بعدها ذاتَ الإلـــهِ لـهـا جـلـيـلُ تـعـرُّفِ
عاشت علىٰ زُهـدٍ تُـؤدِّبُ نفسها أدب التصوفِ بالكُسيرةِ تكتفِي
وإذا كَبَحْتَ النفسَ عن شهواتها «كحبيبةٍ» عَـرَفَـتْـكَ أم لـمْ تعرفِ
ألـفـيـتـهـا قـنـعـت بـــزادِ نـقـائـهـا وكـمـثـل رابـعـةٍ كـريـمـةِ معطفِ
سـبـقـتْ لـرابـعـةٍ وكـانـت قـدوةً لا شـكَّ في نُسكٍ شـهـادةُ مُنصفِ
فـــإذا عـرفـتَ اللهَ كـنـتَ حبيبهُ وبكَ الملائِكُ في السماءِ ستحتفِي
طهر فـــؤادَكَ مـن ذُنُـــوبٍ عُلِّقتْ من فـوقِ مشجبها وفـوقَ الأرفُـفِ
يـا عـازفـًا عـن لـهـوِ دنـيـا للتُّقَىٰ هـذا طـريـقـكَ إذ لـزهـدٍ تقتفِي
مثل الحياةِ كماءِ مُـزنٍ قد هَمَىٰ وتُـــرابِ أرضٍ بالنباتِ مُـفَـوَّفِ
إن تـلـقـهُ يـخـضـر فـهـو لـفـتـرةٍ ويـهـيـجُ إذ يصفر نـحـو تقصُّفِ

حبيبة العدوية:

وحـبـيـبـةٌ عـــدويـــةٌ بـتـصـوُّفٍ بـلـغـتْ مكانتها بفضلِ تقشفِ
وأنـا خلعتُ ثيابها عـن عاتقِي وحـمـلـتُ زادي لـم أُلـذ بتوقفِ
شـأنُ المُسافرِ تحتَ دوحـةِ قائلٍ بـدأ المسير لـهـا إلـىٰ مُستأنفِ
خُذ قدر زادِ الجسمِ يلبسُ رُوحَهُ لـعـبـورِ دُنـيـــاهُ لـــزادٍ ألـطـفِ

زادُ التصوف وهو دونَ كفافِهِ ... من أن يُحملَ نفسهُ بمُترَّفِ

الراوي:

هذي حبيبةُ التصوفُ زادُهَا ... في رحلةِ المسعىٰ ليومِ الموقفِ
لم أستزيدُ من الحياةِ رفاهَةً ... وهيَ السبيلُ لمتعةِ المتطرفِ؟
قدم لروحك زادها من طُهرها ... واقفُ السبيلَ لعابدٍ مُتصوفِ
سلكَ الطريقَ لربهِ فِي سعيهِ ... وغدَا يُقيمُ مع السجودِ العُكّفِ
زادٌ من التقوىٰ مآبُ سعادةٍ ... تصفُو النفوسُ بها إليها فلتفِ
إنَّا علىٰ سفرٍ وزادُ رحيلنا ... أيام دُنيانَا لربٍّ مُنصفِ
حِبٌّ إليه سعَىٰ المُحب لذاتهِ ... بتعلقِ المهفىٰ وقُربِ الأحنفِ
كالأحنفِ القيسيُ فِي خلَواتِهِ ... فِي حُبِّ ناعمةِ القوامِ الأهيفِ
هزجتْ له لحن الغرامِ بقدِّهَا ... لمْ يدرِ كيفَ أنتْ بها بتألفِ
دُنياكَ راقصةً تُحركُ وسطها ... في حانِ مُنصتةٍ لنغمةِ معزفِ
قد وقعتْ حركاتها فِي خِفَّةٍ ... ورنتْ إلىٰ جهةِ الأمامِ بمعطفِ
ما أنتَ مُدركها بعينِ بصيرةٍ ... بل عينِ دُنيا فِي ربيعٍ مُخْرِفِ
سلها أ راضيةٌ برقصكِ للذِي ... قَصَدَتْ خُطاكِ بغير ما لم تهدفِ؟
أنشودةٌ هَزَجَ الخيالُ برمزها ... أو لفظها أو لحنها المُتهتِّفِ
ألقتْ ظلال روايةٍ سُحرت بها ... عينُ الحقيقة ما رنت بتكلُّفِ
نظرتْ إلىٰ تلك الحياةِ طروبةً ... ما أعقبت منها ولما تخلفِ

أوتارُ ناي فيه ينفثُ عازفٌ ... تُصْغِي الحمائمُ أو تُرد بمهتفِ
والغصنُ ميادُ الجوانبِ مُوجفٌ ... أو هامسٌ أو مائجٌ بتخوّفِ
والمستعز بهذه الدنيا لهُ ... منها عُلالةُ ساغبٍ بتِرَشُّفِ
والكوبُ من يدهِ تراجعَ راكضًا ... عن أن يظلّ براحةِ المُترجِّفِ

قال الجنيد: [١]

قال «الجُنيدُ» بهِ وقال مُحاسبي ... وأبو سعيدٍ دعكَ عنهُ بمصرفِ
ما عابدُ الدنيا بنابضِ حسِّهِ ... إلا كرمضاءِ لجمرِ المُلهفِ
فانزع غلالتها لمغلظِ صُوفها ... عش بالقليلِ بها بزادِ تعفّفِ
أدري بأنَّكَ واقفٌ في حلبةٍ ... فيها الصراعُ علىٰ حِفَافِي مزلفِ
وطبيعةُ الصُوفِي كشفُ عُيوبِهِ ... ما بينَ آونةٍ وأخرىٰ أعنفِ
لا يشتري لهو الحديث بذكرهِ ... أو قينةٍ رقصت بنغمةِ مُصحفِ
شتَّانَ بين مُراقصٍ لفتاتهِ ... وفتاةِ ذكرٍ عند سُورةِ يُوسفِ
عذراءَ فكر أو عَوَانٌ ثيبٌ ... في مُحكم التنزيلِ أو بمُصنَّفِ
في آية نُورٌ ولحنٌ خالدٌ ... إن كُنتَ تعرفَ ذاكَ أم لا تعرفِ
ودُعاءُ مُتجهِ لبيتِ إلهِهِ ... ما بينَ قبلةِ طائفينَ وعُكّفِ
بهروا بنُورِ اللهِ في سبحاتِهِ ... ما بينَ فقهِ شريعةٍ وتحنّفِ
يهفُو لها الصوفيُّ في خطراتِهِ ... من غيرِ ما سرفٍ ولا مُتسفِ

---

(١) يقول الراوي (قال الجنيد): والجنيد: هو الإمام الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي، ولد في بغداد ٢٢٠هـ، وهو أحد رموز التصوف الأصيل.

ولـعـلـنـي يـا سـائـلـي أوفـيـتُ ما طلبَ الـسـؤالُ وقـد يكونُ توقفِي

السائل:

الـعِـيُّ يُـشـفـيـهِ الـسـؤالُ لـعـالِـمٍ في العلمِ في الفن الرفيعِ لمدنفِ
كُـل عـلـىٰ وفـقِ امـتـدادِ بـيـانِـهِ وفـمُ الـبـلاغـةِ نـاطـقٌ بـتـصـرُّفِ
ذُو الـنـونِ مصريٌّ وعـارفُ خلوةٍ وأبُو السوارِ مع ابنِ سينا الأشرفِ
وحـبـيـبـةٌ ومُـعـاذَةٌ أمَـةُ الجليـ ـلِ وغـيـرهـنّ بـهـنّ كـانَ تعرُّفِي
لـكـن يُـراودُنِـي سـؤالٌ عـارضٌ من بعد ما قالتْ «حزامِ» بمصدفِ
أَحُـمـيـدْ بـنُ هـلالِ الـعـدويِّ قدْ عرفَ التصوفَ قبل رابعةٍ صُفِي؟

الراوي:

إنِّـي سـأُحـضـرُهُ وسـلـهُ مـا تَـرىٰ ليريكَ رأيًـا في صـفـاءِ الفلسفِي

حميد بن هلال:

مـتـصـوفٌ ولـديَّ فـلـسـفـتِـي بـهِ نظرٌ وفكرٌ في الـوجـودِ المُحتفِي
قـد كـانَ إبـراهـيـمُ فِـي مـلـكُـوتِـهِ يـرنُـو بـإمـعـانٍ وفـكـرٍ تـصـوفِ
مـن كـوكـبٍ هـو طـالـعٌ في أُفـقـهِ وبـدايـةً قـمـرٌ ولـمَّـا يُـخـسـفِ
ورأىٰ الصباحَ وشمسه ذاتَ السَّنَا قُـشِـعَ الـظـلامِ بها ولـمَّـا تُكسَفِ
بـل أيـن ربـي في السما أم أرضـهِ ويغيبُ أم يبقَىٰ بلىٰ لا يختفِي
الأرض مملكةُ الـعـبـادِ ومـلـكُـهُ وكـذا السماءُ وما تبدَّىٰ أو خَفِي

أو حلّ من تحتِ الثَّرَىٰ أو بحرِهِ وبكـلِّ ذراتِ الأديـمِ المُختفِي
شُـهـبٌ وأقـمـارٌ شُـمـوسٌ دُونـهـا تزهُو وتخبُو فِي السَّحابَ وتنطفِي
من خلفها قَـدَرٌ يُحركُ ما سَجَىٰ منها ويقبضُ ما سعَىٰ بتوقُّفِ
ونـبـيُّ أمتـنـا الـرسـولُ مُـحَـمَّـدٌ مـن قبـل بعثتهِ شـديـدُ تحنّفِ
يقضي ليـاليهُ الـطـوالَ عديدها مُتـحـنـثًا لـم يـأْلُ أو يـتـخـلَّـفِ
وبُعيـدُ مـا حـملَ الـرسـالـةَ داعيًا للهِ تـوحـيـدًا ولـمْ يـتـوقـفِ
وغـدَا صـحـابـتُـهُ مـشـاعـلَ أُمَّـةٍ قـدْ أُخـرجـت للنَّاسِ من مُتزلفِ
مـحـرابُـه تـلـكَ الـسـمـاءُ وأرضُـهُ مـيـدانُ تـقـواهُ بـسـعـيٍ مُـردِفِ
مـن كـانَ عـلَّـمَـهُ وشـقَّ طـريـقـهُ نحو الصفاءِ أليسِ من مُتصوفِ؟

بنو عديَ متصوفون:

وبـنُـو عَـدِيّ مـن أُرومَـةِ زاهـدٍ عشقَ التصوفَ والنقاءَ الفلسفي
وكمثلِ قـومِـي مـن بنينَ ونسـوةٍ وبـنـاتِ طُـهـرِ مـن عـذاري حُنّفِ
وليت شطري نحو مُتجهِ التقَىٰ وخـلاصِ نفسي من هوًىٰ وتزيُّفِ
ولبستُ ثوبَ الزُّهدِ لم أرَ - دُونهُ ثـوبًـا يليقُ لـدىٰ نُـهَـىٰ المُتصوفِ

الراوي:

هـذا حُـمـيـدٌ بـنـي عَـدِيٍّ هـلالِـهِ يـا سـائـلاً عـنـهُ بـقـصـدِ تـعـرفِ
هـو رب فلسفةٍ وردءُ تـصـوفٍ ونـجـيُّ زُهـدٍ لـيـسَ بالمُتكلفِ

* * *

المشهد الثاني

مظاهرُ التصوف

أشخاصه:

(١) السائل. (٢) راوي الزمان. (٣) رابعة العدوية.

السائل:

هل للتصوفِ من مظاهرَ تُجتلَىٰ أُسلوبَ نهج فِي الحياةِ يُرادُ؟
وهلِ المُريدُ يُحس نحو مُريدِهِ شغفًا يُحسُّ بهِ نُهًى وفُؤادُ؟

راوي الزمان:

سَلْ عنهُ رابعةً فذاكَ مجالُهَا لكَ قدْ تُجيبُ وفِي الجَوابِ رشَادُ
هي فيهِ رائدةٌ وها هيَ ذِي تَرَىٰ فاسمع لها: إنَّ التصوفَ زادُ

رابعة:

يا سائلاً تبغي الجوابَ هو التُّقَىٰ وتمسُّكٌ بشريعةٍ وكتابِ
وصفاءُ رُوحٍ من شوائب لهواها وتشبثٌ بالطهرِ من أهدابِ
حُبٌّ يُخالطُ للنفوسِ ودُونَهُ هجرُ اللذائذِ واجتنابُ شَرَابِ

لا الخمر يقربها ولا من دنِّهَا ... من بنتِ تُفَّاحٍ ولا أعنابِ
وعبادةٌ للهِ ثم تأمُّلٌ ... فِي عالمِ الملكُوتِ باستصحَابِ
وبشدةِ استغراقِ رُوحكَ مُخلصًا ... للهِ محبُوبًا سِوىٰ الأحبَابِ
وفناءُ ذاتٍ فِي الحبيبِ تعشُّقًا ... لا خوفَ نارٍ رهبةً لعذَابِ
من يعبدِ الله ابتغاءَ مثوبةٍ ... أو خوفَ نارٍ أوْ جزاءَ ثوَابِ
ما ذاكَ إلا بائعٌ أو مُشْتَرٍ ... يسعَىٰ لسُوقٍ تجارةٍ وضِرَابِ
أمَّا الذي عَبَدَ الإله لذاتِهِ ... حُبًّا تنزَّهَ فيهِ عن آرابِ
فهو المُحبُّ حقيقةً لمحبَّةٍ ... بصفاءِ رُوحٍ أَوْبَهُ كذهَابِ
هذا هو الحُبّ الذي تهفُو لهُ ... نفسُ المُحِبِّ بعودةٍ ومتَابِ
الحبُّ فِي اللهِ ابتغاءَ لقائِهِ ... نظرَ المُحِبّ لواقفٍ بألبَابِ
يَبغِي القبُولَ لحِبةِ ولتوبةٍ ... كالعاشقِ الرَّانِي إلىٰ المحرَابِ
العاشقُ الولهانُ فِي محبوبِهِ ... وجَدَ الفناءَ بِهِ أحبَّ رِغَابِ

راوي الزمان:

وأنا أرىٰ أن الفناءَ بذاتِهِ ... لونٌ من التهيامِ غير مُعَابِ
بل حالةٌ يصبُو المحبّ لحبهِ ... من غيرِ خوفٍ في بُلوغِ لُبَابِ
لكن أرىٰ أنَّ العبادةَ قُربةٌ ... للهِ فيها مُتعةٌ بثوَابِ
قالَ الرسُولُ لمن أتوهُ ببابِهِ ... من سدَّةِ الحُجراتِ لا من بابِ
وتذكروا قولاً تفاخر فيه مَنْ ... جاءُوا بصومٍ أو بتركِ طِلابِ

أو بالعبادةِ من صلاةٍ فوقَ مَا ... طاقته نُفس عُذَّبَتْ لإهَابِ
أنتُمْ تقولونَ الذي هو قولكُمْ ... وتفاخرُون به مع الإسهابِ
إنِّي لأخشاكمْ لربي بُغيةً ... لمثوبةٍ أو خوفَ نارِ عذَابِ
وأنا أنامُ وبعد ذا أصحُو وما ... أقليَ النِّسَاءَ أصُومُ قدرَ منابِي
هي سُنتي من كانَ عنها راغبًا ... هو ليسَ مني عاملاً بكتابِ
هذا هو النهجُ الذي يرنُو لهُ ... ربِّي ويجزِي عنهُ يوم حِسَابِ
إنَّ الحسابَ مثُوبةٌ وعُقوبةٌ ... تقضي بذلكَ شرعةُ الوهَّابِ
إن التصوفَ ليسَ رهبانيةً ... فيها ابتداعٌ ليسَ بالإيجَابِ
هيَ هاهُنَا سَلبيةٌ ممقوتَةٌ ... يا من تُريدُ إدارةَ اصطِرْلابِ
دُنياكَ دارٌ للعبادةِ والخُطَىٰ ... سعيًا وراءَ الرزقِ والآرابِ

السائل:

أَوَ ذاكَ نهجكَ فِي التصوفِ والذي ... أدناك منْ قُربٍ لهُ ومثابِ؟
أم ثَمَّ شيءٌ غير ذلكَ رُمتَهُ ... وبلغتَ فيهِ مِنَ التَّقَي للُبَابِ؟

رابعة:

هو في انعطافِ الروحِ نحو إلهها ... في حالِ جذبٍ واختراقِ حِجَابِ
هو الاتجاهُ إليه في كليَّةٍ ... لا الضربُ في الأسواقِ والأطنابِ
حُبٌّ يرىٰ المحبوبُ فيهِ حبَّهُ ... وهو المشوقُ إليهِ في إعجابِ
ويبذلِ جهدٍ في التطهيرِ من هوًىٰ ... لمتاعِ دُنيا ذاهبٍ كسرَابِ

تطهيرُ باطنهِ يراهُ كظاهرٍ ... كالماءِ في كُوبٍ من الأكوابِ
شفَّ الإناءُ بظاهرٍ عن باطنٍ ... والبحثُ عن مُتعلقِ الأسبابِ
يا عابدًا رب الوجُودِ لذاتِهِ ... أكبرتَ معنَىٰ الحُبّ للغلَّابِ
أعددتَ نفسكَ للتلقي خالصًا ... لفيوضِ ربِّ الخلقِ والأربابِ
هي دورةٌ فيها الحياةُ روايةٌ ... فيها الفصولُ غدتْ قوافلَ بابِ
فلتحببوا الله يُحببكمْ بها ... في ساحةٍ من قربِهِ وجنَابِ
ذكرٌ وتسبيحٌ ونبضُ صبابَةٍ ... وزهادةٌ خلُصَتْ من الأوشَابِ
وعناقُ روحٍ للصفاءِ وقُربةٌ ... خلعتْ ظُنونَ الشكِ عنْ أوَّابِ
وفضيلةٌ لبستْ ثيابَ نقائها ... هي لم تكن تُعطىٰ إلىٰ مُرتابِ
هو الانجذابُ بنفسهِ وبُروحِهِ ... للهِ والمجذوبُ نضُو إهابِ
لم يُبدُ من سِمَنٍ ولا لنحافَةٍ ... تُودِي بهذا الجسمِ تحتَ ثيابِ
بتوسطٍ فيه وقصدٍ في الهوَىٰ ... للعالمين بمُرتقَىٰ الأطيَابِ
عَلَّقْتُ في ذاتِ الإلهِ محبتِي ... وصفوتُ من دنسِ القلُوبِ وعَابِ
ما كان حُبِّي فيه قدرَ قُلامةٍ ... لسواهُ منذُ تعلُّقِي بقرَابِ
أحببتُ ربي حُب خالصةٍ لهُ ... ما فيَّ للذاتِ منْ آرابِ
أعطيتهُ حُبي بغيرِ حُدودِهِ ... ولزمتُ محرابِي بهِ وكتابِي
أتلُو لآياتِ لهُ وأعيشها ... عملاً بها فِي غُدوتي وذهابِي
قد سِرْتُ في بحرِ العلومِ بزورقِي ... وعلىٰ شواطئهِ رست أهلابِي

وبـقـدرِ مـا وسـعَ الـفُـؤادُ حبوتُهُ ... وعشقتَ من أهوىٰ بذوبِ شبابِي
عـمـرُ الـحـيـاةِ لـديَّ قـدْ أفـنـيـتُـهُ ... في حُـبِّ ربِّ الخلقِ منذُ متابِي
وبقدرِ ما كانتْ خطاياىَ اغتدَتْ ... حسناتُ قُربِي من رضـًا وعـذابِ
تـاجُ الـحـيـاةِ رأيـتُ في صُوفيتي ... وعلىٰ جبينِ الـحُـبِّ قُبلةُ حابِي
لـو أنَّ لـي مُـلـكُ الـحـيـاةِ بنظرةٍ ... مـن عـيـنِ ربـي بـعـتُـهُ بـتُـرَابِ
وكفيت نفسي من مطالب ميلها ... لـدني شـهـوتـهـا ورجـسِ طِـلابِ
وغـداةَ مـا بـلـغَ الـسـمـو محلهُ ... مـن وجـدِ قُـربـي زادَ بـي تطلابِي
ما رُمـتُ غيرَ اللهِ حب مشاعري ... مـا لـي ولـلـدنـيـا ولـلأصـحـابِ
أصحابِ سُوءٍ قد نفضتَ بهم يدي ... حـتـىٰ ولـو عـلـقـتـهـم بِـنِـصَـابِ
وغـداة مـا دعـتِ الـحـيـاةُ لـغـزوةٍ ... جـردتُ سيفي مـن مهب قِـرابِـي
لم أنـسَ لي وطنًا نموتُ بأرضهِ ... ودفعتُ رُوحِي للفِدَىٰ وصحابِي
قلتُ انـفـروا: إن الجهادِ فريضةٌ ... كُـتـبـتْ علينا في سـجـلِ كـتـابِ
وبـذلـت عـوني لـلـذي يـحـتـاجهُ ... وقـتَ اشـتـدادِ خُطوبها بخطابِ
بـيـنـتُ فـيـهِ لـمـن أرادَ تـقـاعُـسًـا ... أنِّـي عـلـىٰ درب الـفـدىٰ بمنابِ
صُـوفـيـةٌ عـدويـةٌ وهـويـتـي ... بـعـد الأبُـلـةِ في أديـمِ تُـرابِـي

راوي الزمان:

أُودِعْـتِ في الميزانِ رابـعـةً مدًىٰ ... فرجحتِ في الميزانِ ذي الميزَابِ
تاريخكِ الماضي مُعانقُ حاضرٍ ... وإلـىٰ غـدٍ مـغـداكِ عـبـرَ مَـسَـابِ

أرضـــت ربـــكِ بـاتـبـاعِ سبيلهِ وسـعـيـتِ لـلـقُـربَـىٰ بـلا آرابِ
قـدَّمـتِ مـن عـمـلٍ سِـجِـلَّ مـآثِـرٍ مـن خـيـرِ بـاقٍ فـيـهِ نـيـلُ رغَـابِ
قـدرتُ في الميزانِ قـدركِ فانتهَىٰ لـمـداهُ وهـو خُـلاصـةُ الأحـقَـابِ
وختـمـتِ عُـمـرًا حـافـلاً بجلائِلٍ وأوائِـــلُ الأعـــمـــالِ لـلأعـقـابِ

* * *

المشهد الثالث

وقفة مع ذي النون المصري

أشخاصه:

(١) سائل. **(٢) راوي الزمان.**

السائل:

يا راوي الدهرِ لذي النُّونِ عن سِرِّ تقي مكنُونِ؟
لِمَ قالُوا عنهُ مصريٌّ وبحقِّ صفاءٍ لقرينِ؟
أسألُكُمْ وقرينُ سُؤالِي أ نبيٌّ ساهَمَ بسفِينِ؟

راوي الزمان:

هو يُونسُ: أخميمٌ بلدٌ ذُو علمٍ بأصولِ الدينِ
بل عابدٌ استغشَىٰ ثوبًا من زُهدٍ مقرونٍ يقينِ
من لاقَىٰ رابعةً رُوحًا في قاربِ نيلٍ مشحُونِ
رابعةٌ شاميةُ أصلٍ وسواها لم ترَ - ذا النُّونِ
رابعةٌ من آلِ عَدِيٍّ عابدةٌ مع حُور عينِ

هي أُختٌ ذَاكِرُهَا زمنٌ ... في فكرِ «زمانٍ» وقرُونِ
رابعةٌ للشامِ أحلَّتْ ... بيتًا من أرضِ فلسطينِ
ذُو النُّونِ لها أفضَىٰ سرًّا ... آخَتْهُ في غيرِ ظنُونِ
لوصايا سمعتْ فحواهَا ... في الزُّهدِ بنفسِ المضمُونِ
وتُقاةُ الروحِ علىٰ صلةٍ ... والوصلُ بشدٍّ أو لينِ
ليُروا أعمالَ مُريديهمْ ... من حينٍ مرَّ إلىٰ حينِ
ولعلَّ لقاءً رُوحيًّا ... قد ضمَّ وليسَ بممنونِ
أخواتٌ في اللهِ لعمرِي ... لإقام الدينِ وتمكينِ
أقطابٌ في عالمِ رُوحٍ ... ضمتهُمْ أمشاجُ سنينِ
رابعةٌ في الشامِ لها زوجٌ ... إذ رابعةٌ دُونَ قرينِ
عذراءُ ولم يطمثْ إنسٌ ... من قبلُ ولا جنّ فتُونِ
نقَّاهَا اللهُ ووقَّاهَا ... ليسَ علىٰ غيبٍ بضنينِ
ثُمَّ لذي النونِ حكاياتٌ ... ووصايا هُنَّ لتلقينِ
أعطَىٰ لمُريدي منهجهِ ... ما شاءَ لهم من تقنينِ
التوبةُ ظاهرُ باطنها ... ما خالفَها في تكوينِ
فالزاهدُ صُوفيٌّ ورعٌ ... ما بينَ حواشٍ ومُتُونِ
أهلُ الحالاتِ لهم جذبٌ ... ودُموعُ بُكاءٍ - وأنينِ
أنضاءُ جُسُومٍ قد لبسُوا ... لِمُسُوحٍ أو لقفاطينِ

أحسبُهُمْ قُربَاءَ ذواتٍ في حَرَكٍ منهم وسُكُونِ
أرواحٌ في الملأ الأعلىٰ تتلاقَىٰ في عطفةِ دينِ
كمْ عطفةِ عُشَّاقٍ جمعتْ لمئاتِ بلِ لملايينِ
جمَّعُهُمْ نسبٌ رُوحيٌّ بالروحِ ومنهم ذُو النُّونِ
أدَّبهُمْ ربٌّ كنبيّ بكتابٍ صادقِ تبيينِ
في الأرضِ لهم أثرٌ باقٍ بمُطاعٍ من ثمَّ أمينِ
رُوَّادُ العالم أقطابٌ ساسُوهُ علىٰ مرَّ سنينِ
ولكلٍّ ثم طريقتُهُ كمُريدٍ ليسَ بمغبُونِ
فِي ساحةِ قُربٍ عُلوِيٍّ ما بينَ دُعاءٍ وأنينِ
ذُو النونِ ورابعةٌ بهما يا سائلُ ماذا مِنْ دُونِي؟

السائل:

أنصفتَ وبينتَ وحسبِي ما أنتَ بهدِىٰ تُوليني
قد زدتُ يقينًا بتُقَاةٍ في الحُبِّ تسامَىٰ عنْ طينِ
في حُبِّ اللهِ قد اجتمعُوا فِي رُوحِ خلعتْ لقرينِ
وتمارتْ فيهمْ آراءٌ ما بينَ شُكُوكٍ ويقينِ
أنداداً فِي حُبِّ إلهِ عشقُوهُ إلىٰ يوم الدينِ
لا خوفَ عليهم فِي دُنيا أو دارِ خُلُودٍ وعُيونِ
هُمْ عبدوا اللهَ ولقَّاهُمْ جَنَّاتٍ من حُورِ عِينِ

فِي عطفةِ عُشاقٍ سارُوا وتلاقوا فِي نبعِ معينِ
رابعةٌ منهم ذو نُونٍ ومُعاذَةُ فِي أرحبِ حِينِ
مولاهم ربٌّ ذُو مِنَنٍ ما يُسرَىٰ علمتْ بيمينِ

* * *

المشهد الرابع

سبحاتٌ في بحرِ التصوفِ

أشخاصه:

(١) راوي الزمان. (٢) السائل.

(٣) أقوال على لسان رابعة. (٤) شاعر المسرحية في نشيد دعاء.

راوي الزمان:

لـديَّ إذَا مـا شئتَ شيئًا كسائلِ جـوابٌ لما تبغي لـهُ مـن مسائِلِ
فذاكرتي فيها صـدَىٰ ذكرياتهمْ وأيامهم من غـضِّ غُـصْـنٍ وذابِـلِ
لـهـم طـبـقـاتٌ في الـتـصـوفِ عـدةٌ علىٰ درجـاتٍ في التقىٰ ومـنـازِلِ

السائل:

وهل دُونَ من كانوا رجالَ تصوفٍ زمـانَ رسـولِ اللهِ بـيـنَ أوائـلِ؟
وهـل عـبـدُوا كـالـزاهـديـن إلههمْ علىٰ ذاتِ نهجٍ بينَ أهل الفضائلِ؟

راوي الزمان:

هُـنـالِـكَ حَـسَّـانُ بـنُ ثـابـتٍ الـذِي لـهُ بـرسـولِ اللهِ أصـدقُ قـائـلِ

قصائدَ فِي مدحِ الرسول ودُونهُ ... يُنافحُ عنهُ من تَعَرُضِ جاهِلِ
ونادَىٰ رسُولُ اللهِ أن أَلْقِهَا بهم ... ومعكَ لروحِ القُدسِ رشقةُ نابِلِ
أ حسَّانُ قُلْ فيهم: فشعركَ بالغٌ ... مكانَ الهوَىٰ فيهم ودامِي المقاتِلِ
وفِي عطفةِ العُشَّاقِ كم من قوافلٍ ... وكمْ من قَئُولٍ فِي التصوفِ فاعلِ
ترنَّمَ فِي حُب الرسولِ قصيدَهُ ... وناجاهُ فِي شتَّىٰ صُدورِ المحافِلِ
هجاءً لأعداءٍ وشدوًا بنصرةٍ ... دفاعًا وإدحاضًا لحُجَّةِ باطلِ
أتيتَ رسُولَ اللهِ بالنّورِ والهُدَىٰ ... وبالبر والتقوىٰ بثاوٍ وعاجِلِ
وذلكَ فِي مدحِ الرسُولِ تصوُّفٌ ... وعُشَّاقُ نجواهُ بلحنِ البلابِلِ
وما كانَ حسَّانُ بنُ ثابت وحدهُ ... أمامَ الزَّبَعْري[1] في هجاءٍ مُقابلِ
فإنَّ لعبدِ اللهِ نجلُ رواحَةٍ ... من الذود ما أربَىٰ علىٰ فعلِ باسلِ
وفِي ابنِ زهيرٍ كعبِ المدحُ بُردةٌ ... بها من كريمِ القولِ قُربةُ واصلِ
رأىٰ جنةَ الفردوسِ تبدُو أمامَهُ ... وأبلىٰ للُقياها بلاءَ المُناضلِ
صفت روحهُ كالقائلينَ بمدحِهِ ... وهذا لعمري من قبيلِ النوافِلِ
وجاءَ بذكرِ اللهِ ما فيهِ ذكرُهُ ... بمنْ يشتري مرضاتِ ربٍّ كباهِلِ
وفِي ذاك هُمْ[2] قد ساءُلوا هلْ رأيتَهُ؟ ... فقالَ لهم نورٌ بلا أيِّ حائِلِ

(١) الزبعري: هو عبد الله بن الزبعري بن عدي بن قيس بن عدي بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي.. شاعر قريش في الجاهلية كان يحارب المسلمين في شعره حتىٰ فتحت مكة فهرب إلىٰ نجران ثم عاد إلىٰ مكة واعتذر للنبي مدحه فأمر له بحُلة.

(٢) هُمْ في النسخة المشكلة بخط يد الشاعر والمودعة دار الكتب الطبعة الأولىٰ، وفي النسخة الخطية (مَنْ).

رأيـــتُ بـــهِ ربـــي ولـيـس بهيئةٍ ... تُحيطُ بها نفسٌ ولا بِمُشَاكِلِ
ومـنْ قـالَ فيهِ بالحلولِ بوحدةٍ ... ومـا لـسواهَـا مـن وجـودٍ مُماثِلِ
ومَـنْ قـالَ بالأشراقِ وهو تجاذُبٌ ... بـرُوحِ السَّنَا الأعلىٰ بغيرِ تداخُلِ
بفيضٍ إلـهي تجلّىٰ لـمـنْ يَـرَىٰ ... لـــدَىٰ قـلـبـهِ مـن آخـــرٍ وأوائـــلِ
ومَـنْ قَـالَ وَهْـمٌ قـدْ تـراه نفُوسُنَا ... ويهفُو لـهُ الـرائِـي بـحسّ مُقابلِ
ومَـنْ قـالَ حُـبّ بينَ ذاتٍ وقائِلٍ ... يهيم بها عشقًا غـدَا في تـواصُـلِ
ومَـــنْ قـــالَ إنَّ اللهَ جـلّ جـلالُـهُ ... أراهُ بعيني وهـو يُفضِي لداخِلِي
ومَنْ قَالَ شطحاتٌ لصاحبِ صُوفَةٍ ... علىٰ غيرِ مـأمُـولٍ لجذبٍ وطائِلِ
ومَـنْ قـائلِ حـالاتُ نفسٍ بعينها ... تـراهـا أحـاسـيـسٌ لـبـاقٍ كـزائِـلِ
ولـمْ يـدرِهَـا إلا نُـفُـوسٌ تطهَّرتْ ... من الإثمِ أو رجسِ الهَوَىٰ ورذائِلِ
وأجـــزمُ أن الـعـشـقَ لـيـسَ لـذاتِـهِ ... ولـكـنْ لـشـيءٍ مـا بـهِ مـنْ فـواصِـلِ
وأرواحُ صديقينَ ليست بذاتها ... ولـكـنْ خـيـالاتٌ لـهـا في تـقـابُـلِ
تـروحُ وتغدو فِي حديثٍ ووصلةٍ ... بنفسِ مُـحـبٍّ فِـي نـداءٍ لـواصِـلِ
يُـنـاديـه أن أقـبـلْ إلـيـنـا مُـلاقـيًـا ... عـلىٰ مـقـةٍ مـنِّـا.. وقُـــربٍ لـنـائِلِ
فأنتَ حبيبٌ قد دعوناكَ فالتمسْ ... طريقًا إلينا فِي العُلَىٰ والجنادِلِ
كمُوسىٰ وعيسَىٰ والنبيّ مُحمدٍ ... وذي النونِ إذ إدريسُ خُصَّ بناقِلِ
سَمَا نحو أقطارِ السماواتِ طائفًا ... عـوالِـمَ شـتَّـىٰ مالها مِـنْ مُـقـابِـلِ
لها ذاتُـهـا ليستْ تـشـابِـهُ غيرها ... وليسَ لها فِي الأرضِ أيُّ مُشاكِلِ

ومن قائلٍ خلعٌ لنفسٍ من الحَشَا ... لدَىٰ بدنٍ منها كمُضنَىٰ سلاسِلِ
تشبَّثَ بالغبراءِ أصلِ وجُودِهِ ... كآدَمَ محمولاً كثاوٍ وصائِلِ
وإذ يتوفَّىٰ اللهُ أنفسُ خلقِهِ ... بنومٍ وصحوٍ فِي لقاءِ مُواصِلِ
أُزيلَ ثيابُ الرقِّ عنهُ للذَّةٍ ... وشهوةِ نفسٍ بُدِّلَتْ بتواصُلِ
وإنْ عارضَ اللاحِي تصوُّفَ عابِدٍ ... فلستُ بذِي لومٍ علىٰ جهلِ عادِلِ
لكلِّ امرئٍ نهجٌ يسيرَ إلىٰ الهُدَىٰ ... وإن كان لاحِي الزُّهْدِ مَحض مُجادِلِ
يُعارضُ ما لم يدرِ عنهُ ولا رأىٰ ... حقيقةَ أمرٍ لم يَلِجْهُ كباذِلِ
ولا كان منه صاحبًا لمجالِهِ ... ولا فِي خيالٍ منهُ حَامَ كنازِلِ
وما زادنِي إلا أُصيخ لقولهِ ... ووقتِي سوىٰ مقتي إلىٰ غيرِ طائِلِ
تقيٌّ تقيُّ النفسِ قلبي لروحِهِ ... كرابعةٍ ما عالمٌ مثلَ جاهِلِ
أمَا هيَ قدْ تابتْ وناجتْ إلهها ... بغُفرانِ ذنبٍ من ضلولٍ لقابِلِ؟
ومَنْ راجعٌ للهِ بعدَ ضلالةٍ ... رؤاها عليهِ أطبقتْ بأنامِلِ
وإنِّي لغفارٌ لمنْ جاءَ تائبًا ... لمنْ أسرفُوا ذنبًا بعفوٍ مُقَابِلِ
ورابعةٌ عادتْ إلىٰ ربها تُقًىٰ ... وآوتْ إليهِ وابتغتهُ لنائلِ
أحبُّ لقلبٍ رُؤيةً من حبيبِهِ ... وقدْ جاءهُ سعيًا بأوزارِ حامِلِ
فدُلِّي عنهُ الثقلُ أُلقِيَ خلفَهُ ... كأنْ لم يكن وزرًا مضَىٰ عن كواهِلِ
فلا لومَ أوْ تثريبَ يومًا لتائبٍ ... وتائبةٍ من ذنبها أو مُعَاضِلِ
فرابعة عنوان زاهدة جَفَتْ ... لدنيا ولهوٍ من قديمَ وقابِلِ

ففي رحلةِ العُمرِ الطويلِ مثابةٌ ... لآيـبـهـا مـنـهُ مـنـادحَ شـاغِـلِ
رأتْ ربـهـا حُـبًّـا لـهـا في مآبها ... وراءَ صَبُوحِ العُمرِ أفضَىٰ بآفِلِ
وطلقتِ الدنيا وزُخـرفَ ما بها ... فيا حُسن أوَّابٍ ويا فضلَ كافِلِ
فكفَّلـهَا ربّ الـسـمـاءِ بفضلِهِ ... فَحَثَّتْ لـهُ المسعَىٰ بأشـواقِ آمِـلِ
فهلْ لا يُريها ما رجتْ من قبُولِهِ ... ويـحـرمُـهَـا مـنْ قُـربِـهِ ومـنـاهِـلِ؟
وعـاشـقُ قُـرْبَـىٰ ربِـهِ عـابـدٌ لَـهُ ... وكـادِحٌ مسعاهُ سبيلُ الـتـواصُـلِ
ورابـعـةٌ ذاقـتْ حـلاوة قُـربِـهِ ... ومنها نصُوحُ التوبِ أوفَىٰ الوسائِلِ
رأتْ ربـهـا رُؤيـا قـبـولٍ لـتـائِـبٍ ... وبـشـرهَـا بـالـخُـلـدِ روضـةَ نـازِلِ
فقالتْ كفانِي أن أراكَ كرؤيتِي ... لـلُـقـيـا حـبـيـبٍ في أحـب مـنـازِلِ
وهـل زهـدهـا في جنةٍ بعد فضلِهِ ... يُـعـدُّ عُـزُوفًـا مـن قبيلِ الـتـنـازُلِ؟
وهـل أمنُهَا مـنْ أنْ تخافَ عذابَهُ ... بـنـارٍ عَـدُولٌ عـنْ مخافةِ واجـلِ؟
وهلْ مَنْ ترىٰ ربـًا أرادتْ وصالَهُ ... خُـروجٌ عن المألوفِ والمُتناوِلِ؟
لـربّ الـورَىٰ فضلٌ تسامَىٰ علُوَّهُ ... وفـيـهِ تعالىٰ اللهُ حـابِـي الـنـوائِـلِ
سلامٌ عليها من رُبَىٰ الخُلدِ والثُّرَىٰ ... بدُنيا وأُخـرىٰ من حبيبِ مُواصِلِ
أليستْ مـنـارًا للتصوفِ والتُّقَىٰ ... وللزهدِ عُنوانـًا غـداً غيرَ آفِـلِ؟
أنـارتْ طـريـقَ السالكينَ لتوبةٍ ... عسَاهَا هَـدَتْ آلافَ قـومٍ غوافِلِ
غَـدَتْ قُـدوةً حُسنَىٰ لراغِبِ قُربَةٍ ... سَعَىٰ مُطمئن النفسِ ليسَ بجافِلِ

* * *

المشهد الخامس

رابعة في مناجاة ربها

أشخاصه:

(١) السائل. **(٢) راوي الزمان.**

السائل:

أليسَ لرابعةٍ منْ شَذَاكَا أ راوِي الزمانِ حبتهُ يَداكَا؟
علىٰ وفقِ ما نسبُوهُ إليها دُعاءٌ بهِ صُغتهُ من نُهَاكَا
يُخلّدُ منْ ذكرهَا فِي الورىٰ علىٰ وفقِ ما نطقتهُ إزاكَا

راوي الزمان:

«أُحبكَ حُبينِ حُبُّ الهَوَىٰ وحُبٌّ لأنكَ أهلٌ لذَاكَا»
«فأمَّا الذي هُوَ حُب الهَوَىٰ فشُغلِي بذكركَ عمَّنْ سِواكَا»

السائل:

وهل كانَ هذا نشيدًا لها وعُمرًا لها طالَ حتىٰ مدَاكَا؟
ألمْ تكُ قالتْ سوىٰ ذاكَ شعرًا بهِ دعتِ اللهَ تبغِي انتساكَا؟

راوي الزمان:

حفظتُ لمغناهُ[1] من قولها ... أيا ربُّ رُحماكَ وانشُرْ رضاكَا
رضاكَ لرُوحِي زادُ الحياةِ ... وإكسيرُهَا أن أُعادي فِداكَا
فإنْ عذَّبُونِي فجسمِي لهمْ ... وروحي إليكَ تُناجِي هُداكَا
أُحبكَ حُبينَ ملءَ الفُؤادِ ... وملءَ الوجودِ بشوقٍ دعاكَا
إلهي عبدتُكَ فِي خلوتِي ... ومنْ لِي علىٰ الكونِ حُبٌّ خَلاكَا؟
عبدتُكَ فِي الليلِ عندَ الهزيعِ ... وما أغمضَ الجفنَ مَنْ قدْ هَواكَا
وطُولُ النهارِ أبُثّ العبيرَ ... إلىٰ روضةِ الحُبِّ فيها أرَاكَا
أراكَ أيا ربِّ فِي كُل شيءٍ ... يَدُلُّ عليكَ حوتهُ يَدَاكَا
ووجهتُ وجهي لبابِ القبُولِ ... ولي منكَ ما قُلتُ أهوَىٰ نِدَاكَا
فإن لُذتُ بالبابِ فاغفرْ ذُنُوبِي ... فعبدُكَ من ظلَّ يبغي رضَاكَ
ورابعةٌ لكَ عبدةُ حُبٍّ ... وعاشقةٌ لكَ لاذَتْ حِمَاكَ
فدعني من الناسِ فِي غيّهمْ ... وكُنْ ما نِجِي دُونهم مُبتغَاكَا
فزادِي الهَوَىٰ والجَوَىٰ والنَّوَىٰ ... وفيهِ الدوَا والسوا من سَنَاكَا
تركتُ هوىٰ الناسِ فِي العالمينَ ... وسبحتُ باسمِكَ أشدُو غِنَاكَا
فِفِي النَّاي نفثةُ آلامِ رُوحِي ... ولحنُ الغناءِ صدًىٰ من لِقَاكَا

(١) (لمعناهُ) هي كما وردت في النسخة المكتوبة بالكمبيوتر ومُشكلة بخط يد الشاعر، والمودعة دار الكتب في الطبعة الأولىٰ، أما في النسخة الخطية مكتوبة (لِمَغْنَاهُ).

لـقـيـتُـكَ فِي خـافـقِـي إذ يـرِفُّ ... ويـرعـشُ طـرفِـي ورُوحِـي تـرَاكَـا
مـزجَـتُ مع الـنـورِ قلبِي ورُوحِـي ... فـأنَّـىٰ تـوجـهـتُ قـبـلـتُ فـاكَـا
ولـي مـن نـجـيـكَ لـحـن الـخُـلُـودِ ... ومرضاةُ رُوحـي جَثَتْ فِي عُلاكَا
تـركـتُ الـهـوىٰ لحبيبِ الـثَّـرَىٰ ... وودعـتُـهُ حـيـنَ كـنـتَ هُـنـاكَـا
وتـابـعـتُ دربـي لـلـمُـنـتـهـىٰ ... وإن ظـلـتُ عُـمـري أسـيـرةُ ذَاكَـا
فـأفـرغْ عـلـيَّ يـقـيـنـًا ونُـورًا ... أرَىٰ فـيـه مـن جـانـبـيـكَ سـمَـاكَـا
وفـيـهـا مـلائـكـةٌ سـاجـدُونَ ... ومنهمُ رُكُـوعٌ أطـاعُـوا ابتغَاكَا
رجـوتُـكَ يـارب فِـي غُـربـتـي ... وأذلـلـتَ دمـعـي لـعـزِّ عُـلاكَـا

السائل:

عـرفـتُ لـرابـعـةٍ قـدرهـا ... وإنِّـي بـهـا قـد بـلـغـتْ السـمـاكَـا
وعـارضـتُ فِـي شأنها الممترينَ ... بـسُـوءٍ وبـثـوا عـلـيـهـا الـشـبـاكَـا
وقـلـتُ لـمـنْ بـالأذىٰ رامَـهَـا ... رُويـدكَ مـا عُـدتُ يـومـًا أراكَـا
رمـيـتَ الـكـريـمـةِ بـالـمـوبـقَـاتِ ... ولـمْ تـجـنِ «مُـوبـقَـةً» مـنْ قِـلاكَـا
تَـحَـمَّـلَـت الـمُـرهـقـاتِ الـجِـسَـامَ ... ومـا رهـبـتْ فِـي ضـنَـاهَـا عَـصَـاكَـا
نـثـرتَ لـهـا الـشـوكَ فِـي سمتها ... وكُـلُّ أذًىٰ رُمـتـهُ مِـنْ أذَاكَـا
أسـأتَ لـعـابـدةٍ أخـلـصـتْ ... عـبـادتـهـا لـلـذي قـد بَـرَاكَـا
أكـنـتَ حسيبًا عـلـىٰ فـعـلِ ربٍّ ... حَـبَـا تـائـبـًا مـا عـسـاهُ حَـبَـاكَـا؟
إذا هـي عـاشـتْ حـيـاةِ الـهـوَىٰ ... بـظـاهـرِهِ.. فـهـيَ تـشـكُـو عَـدَاكَـا

رميتَ بسوءٍ ثيابَ النقاءِ ... وأوغلتَ مُتهمًا فِي جفاكَا
نعمْ هي قد نفثت نايها ... مُغنيةً أو لرقصٍ شجاكَا
وتابَ عليها الكريمُ الرحيمُ ... وكان اجتباها هوًىٰ ما اجتباكَا
أتحسُدُ من رامَهُ ربُّهُ ... وتُلقي الترابَ علىٰ من هداكَا؟
أما تَرَكَتْ كل هذا وذاكا ... ويا ربها كُنتَ أهلاً لذاكَا
أحبتكَ حُبًّا يفوقُ النُّهَىٰ ... يظل المدَىٰ ضارعًا فِي رُباكَا
قبلتَ المتابَ منحت الثوابَ ... وقَربتها منك تحوي يداكَا
إلىٰ حضنك الرحبِ آويتها ... وأسقيتها منكَ حُبًا حواكَا
فأنتَ لها وهيَ طوعًا أتتْ ... وبوأتَهَا فِي هواها رجاكَا
تراك بعاقبةٍ أو بدنيا ... وألهمتها الرشدَ من مُحتباكَا
وأنتَ العفو وأنتَ الغفورُ ... عن المذنبِ المُحتمِي فِي حِماكَا
وآمنتهُ من مخوفِ العقابِ ... إذا جاءَ مُلتجئًا مُعتفاكَا
وكرَّمتهُ منكَ قُربًا وحُبًّا ... بكشفكَ من ضُرِّهِ ما تشاكَىٰ
وأذرفَ دمعًا تلقيتهُ ... ومن عينهِ مسحتهَ يداكَا
وإنك عالمُ ما في القلوبِ ... إذا ما القلوبُ دَنَتْ منْ خفاكَا
وإنَّكَ غفَّارُ ذنبٍ لعبدٍ ... إذا ما خُطاهُ مشتْ في خُطَاكَا
ورابعةٌ عشقت ربها ... بديلاً لحُبٍّ تناءىٰ خلاكَا
فكنتَ لها الحب والمُرتضىٰ ... وكُنتَ الحِمَىٰ لعُبيدٍ أتاكَا

راوي الزمان:

وإنِّـــي راويَ هــذا الــزمــانِ بـذاكـرتـي ذا سـجـلـيَ هـاكَـا
حـفـظـتُ لـرابـعـةٍ ذكـرهـا بـذهـنِ الـزمـانِ وكُـنـتَ الملاكَا
وعـارضـتُ شـرّه أهـلِ الـهُـوَىٰ يميلُ عـن الـحـقّ.. أو مُنتواكَا
فـيـا رب رفـقًـا بـبـاغِـي الـرضـا كـرابـعـةٍ.. بـاغـيـًا مُـرتـضَـاكَ

السائل:

عـسـاكَ تـقـبـلُ يـــاربَّ ذنبي وتُبلغنِي السـؤلَ حتىٰ أراكَـا
فـإنِّـي لـحـافـظ سـر الـهـوىٰ وشـاعـرُهُ كـم لـتـوبٍ رجـاكَـا
لـعـل سـفـينَ الـهـوىٰ فـوقَ شـطٍّ لـجـوديـهِ أن يَـحُـلَّ ثُـراكَـا[1]

شاعر الملحمة:

ولـلـشـعـراءِ كـأهـلِ الـهـوَىٰ نـجـيٌّ عـسَـىٰ منـه رامَ افتكاكَا
فـهـم في ربـيـع الـشـبـاب غَـوَاة أحـسـوا بـمـا اقـتـرفـوهُ إذاكَـا
تـقـبـل لـهـم تـوبـةً بـالـرجـوعِ إلـيـكَ أليسوا أتـوا في حـماكَـا؟
وإنـيـي يـــارب مـن بـيـنـهـم كـرابـعـةٍ رمـتُ دومـًا رضـاكَـا

* * *

(١) (سُراكَا) في النسخة المودعة دار الكتب والوثائق القومية المصرية، والمشكلة بخط يد الشاعر.
(ثُراكا) في النسخة الخطية من القصيدة.

المشهد الأخير

دعـاء شاعر المسرحية

وفــقــتــنِــي يــا إلــهــي في نــغــمــةٍ مــن شــفــاهِــي
بــعــثــتــهــا مــن فــؤادِي تــمــضــي لأعــلــىٰ اتــجــاهِ
كــتــبــتُــهَــا بــدمُــوعِــي هــوًىٰ وإنــكَ جَــاهِــي
وفــقــتَــنِــي يــا إلــهِــي
يــا قــابــلَ الــتــوبِ منِّي ومــاحِــيَ الــذنــبِ عــنِّي
فــامــنــن عــلــيَّ بــأمــنــي فِــي يــومِ روعٍ يُــعــنِّي
وهــبْ لــشــعــرِي قــبــولاً فــمــا أرىٰ فــيــهِ غــبــنِي
وأنــتَ عَــوْنِــي إلــهــي
رابــعــةٌ في الــجِــنَــانِ لــهــا ولِــي جَــنَّــتَــانِ
بــهــا ذواتَــا غُــصُــونٍ وحُــورُ عــيــنٍ حِــسَــانِ
غِــلْــمَــانُ خُــلــدٍ عليها «عــيــنــانِ نــضَّــاخَــتَــانِ»
فِــي نــغــمَــةٍ مِــنْ شــفَــاهِــي
وفــقــتَــنِــي يــا إلــهِــي

راوي الـــزمـــانِ رسُـــولٌ يـــقـــولُ بـــي مـــا يـــقُـــولُ
والـــقـــلـــبُ مـــنِّـــي خـــجـــولُ هـــلْ كـــانَ مـــنـــكَ الـــقَـــبُـــولُ؟
والـــشـــعـــرُ وحـــيٌ جـــمـــيـــلٌ وفي دعـــائِـــي مُـــثُـــولُ
فَـــكُـــنْ ضـــمـــيـــنـــي إلـــهـــي وتـــوبـــتِـــي فِـــي شِـــفَـــاهِـــي

تمت المسرحية

في ١٤/ ١/ ١٩٩٦م

في ذكرى ميلادي الرابعة والستين

عبد المجيد فرغلي محمد رفاعي

محتويات الكتاب

تقديـم ٥

تمهيد: المسرح الشعري.. عند عبد المجيد فرغلي ٩

بيان بالشعر المسرحي ١٢

رابعة العدوية في ذاكرة الزمان ١٣

الفصل الأول: طفولة رابعة ١٥

المشهد الأول: يوم ميلاد رابعة ١٧

المشهد الثاني : فتونُ رابعةٍ ٢١

المشهد الثالث: رابعة في سوق الجواري ٣٠

المشهد الرابع : حوار في عش الزوجية ٣٦

الفصل الثاني: رابعة في رحلة عذاب ٤٣

المشهد الأول: في بيت السيد خليل ٤٥

المشهد الثاني : رابعة راجعة إلى ربها ٥١

المشهد الثالث : راوي الزمان يحدثنا عن رابعة ويضعها في الميزان ٥٤

المشهد الرابع: رابعة في رحلة العودة إلى الله ٦٢

الفصل الثالث: في خلوة الحب ٦٧

المشهد الأول : في الطريق ٦٩

المشهد الثاني : رحيل.. إلى جبل رابعة ٧٩

المشهد الثالث : رابعة تشاركُ في النضالِ بالكلمةِ المتصوفة ٨٤

ملائكةٌ وحُور في مشهد درامي حول نعش رابعة ٩٥

الفصل الرابع: البيئة التي أنجبت رابعة ٩٧

المشهد الأول : البيئة التي أنجبت رابعة ٩٩

المشهد الثاني : مظاهرُ التصوف ١٠٩

المشهد الثالث : وقفة مع ذي النون المصري ١١٥

المشهد الرابع: سبحات في بحر التصوف ١١٩

المشهد الخامس : رابعة في مناجاة ربها ١٢٤

المشهد الأخير : دعاء شاعر المسرحية ١٢٩

محتويات الكتاب ١٣١